مكتبة الأسرة
1999

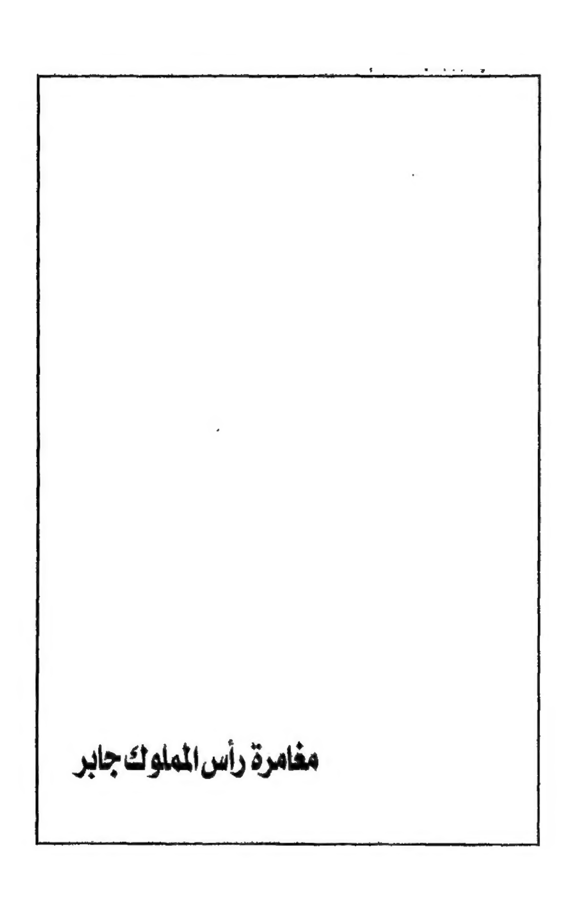
مهرجان القراءة للجميع

الروائع

مغامرة رأس المملوك جابر

سعد الله ونوس





مغامرة رأس المملوك جابر

بالتعاون مع منظمة اليونسكو
(كتاب في جريدة)

مغامـرة

رأس المملوك جابر

سعد الله ونوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الروائع)

مغامرة رأس المملوك جابر

سعد الله ونوس

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

سعدالله ونوس

كاتب مسرحى سورى ولد فى حصين البحر بمحافظة طرطوس عام ١٩٤١، واشتهر منذ الستينات كواحد من أبرز وجوه الحركة الثقافية والمسرحية فى العالم العربى.

درس الصحافة فى القاهرة وأنهى دراسته فى عام ١٩٦٣. وفى تلك الفترة بدأ اهتمامه بالمسرح وكتب مسرحيات قصيرة صدرت عن وزارة الثقافة فى سوريا عام ١٩٦٥، فى كتاب مستقل تحت عنوان «حكايا جوقة التماثيل»، ثم جمعت مع غيرها فى كتابين صدرا عن الآداب فى لبنان عام ١٩٧٨. ومن أهم هذه المسرحيات القصيرة «ميدوزا تحدق فى الحياة» و«فصد الدم» (١٩٦٣)، و«جثة على الرصيف «ومأساة بائع الدبس الفقير» و«والرسول المجهول فى مأتم أنتيجونا» (١٩٦٤) و«الجراد» (١٩٦٥). سافر إلى فرنسا عام ١٩٦٦ وتعرّف على المسرح الغربى فى فترة تحولاته الأساسية، واستطاع أن يستوعب أهم الطروحات الجديدة فى تلك المرحلة وأن يطوعها فى أعماله على أرضية المسرح العربى واهتماماته. فاستخدم «الهابننغ والتحريض» وأدخل تقنياتهما على موضوع

الحرب في عام ١٩٦٨ و ذلك لكي يطرح سؤالا جوهريا حول الهزيمة مشككاً بقدرة الكتابة المسرحية التقليدية على التعبير عن المستجدات والأحداث العنيفة المعاصرة كما في مسرحية «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» أن استخدام تقنيات المسرح الغربي، في تلك المرحلة، لم يؤد عند سعدالله ونوس، بأي حال من الأحوال إلى عملية نسخ، وإنما كان عملية جدلية ربطت ومجت بين أهم التطورات التي دخلت على المسرح العالمي في الغرب، وبين اشكال وتقاليد «الفرجة» في تراثنا الثقافي والشعبي، وهذا ما نجده في مسرحيات مثل «الملك هو الملك» (١٩٧٨) و «الفيل يا ملك الزمان» و «مغامرة رأس المملوك جابر» (١٩٦٩) حيث يحكي حكواتي لجمهور مقهى شعبي حكاية المملوك الذي ضيع رأسه في معمعة الصراع على السلطة. في هذه المسرحيات يستخدم ونوس تقنيات اللعبة والحكاية التي تولد حكاية أخرى (كما في حكايا الف ليلة وليلة)، وتقنية المسرح داخل المسرح، بحيث تبدو الأمور وكأنها لعب ينقلب إلى جد. وقد بلور ونوس عبر هذه المسرحيات مفهوم «التسييس» وميزه عن المسرح السياسي.

وبالإضافة إلى ذلك صاغ ونوس أفكاره عن المسرح والثقافة بشكل نظري في كتابي «بيانات لمسرح عربي جديد» و «هوامش ثقافية». والواقع أن اهتمامات ونوس المتعددة والمتنوعة على المستوى الثقافي قد تبلورت في نواح عديدة منذ البداية. فقد قام بترجمة جان فيلار إلى العربية، وكتب مسرحية عن مؤسس المسرح في سوريا وهي «سهرة مع أبي خليل القباني» كما ساهم في ترسيخ أسس لمهرجان مسرحي في دمشق، وأسس وترأس تحرير مجلة مسرحية -صة هي (الحياة المسرحية)، وساهم في إنشاء معهد لتدريس المسرح في

كرّم سعد الله ونّوس فى محافل عديدة أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبى فى دورته الأولى ومهرجان قرطاج بـ تونس عام ١٩٨٩ وحصل على جائزة سلطان العويس الثقافية عن حقل المسرح فى دورتها الأولى.

صدرت أعماله الكاملة فى عام ١٩٩٦، فى ثلاثة مجلدات عن دار الأهالى بدمشق، جمعت فيها كل المسرحيات الطويلة والقصيرة والنصوص النظرية من بياناتها وكتابات تتعلق بالمسرح. وقد ترجمت مسرحياته إلى العديد من اللغات الأجنبية كما نشرت وتم عرضها فى كثير من الدول العربية والأوروبية.

رحل سعد الله ونّوس فى الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٩٧، إثر مرض دام لسنوات لم ينقطع خلالها عن الكتابة. ومن أعماله فى هذه الفترة «طقوس الإشارات والتحولات» و «الأيام المخمورة».

■ أحاول في هذه المسرحية تجربة أخرى من تجارب مسرح التسييس، التي بدأتها من قبل. ينبغي هنا التنبيه إلى أن هناك فارقاً كبيراً بين «المسرح السياسي» و «مسرح التسييس» لا مجال الآن للبحث فيه. وأحدد بسرعة مفهوم هذا «المسرح» على أنه حوار بين مساحتين. الأولى هي العرض المسرحي الذيتقدمه جماعة تريد أن تتواصل مع الجمهور وتحاوره والثانية هي جمهور الصالة الذي تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشكلاته... وحتى الآن لا يزال هذا الحوار صعباً فمن جهة، هناك التقاليد المسرحية المبنية على إلغاء مثل هذا الحوار، أو إقامته بصورة غير مباشرة وضمنية. وهناك أيضاً. وهذا أهم. طبيعة المتفرجين أنفسهم وموانعهم الداخلية التي تحول بينهم وبين مباشرة الحوار والانسياق مع نوازعهم الداخلية للتعبير عن أنفسهم. لهذا فإننا نقوم بتجربة بعض الوسائل المصطنعة لتقديم مثل على إمكانية هذا الحوار. كأن نضع في سياق العمل متفرجين يتحدثون لحسابهم، ويناقشون، ويقدمون نموذجاً لما يستطيعه المتفرج أو لما ينبغي أن يكون

عليه، طبعا نحن لسنا من السذاجة بحيث نعتقد ـ كما ظن احد الكتاب في تعليقه على «حفلة

سمر» أن المتفرجين الحقيقيين لن يكتشفوا أن هؤلاء الذين يجلسون بينهم، ويشتركون في النقاش والحوار، هم ممثلون مدربون على أدوارهم.. ولكن كما قلت سابقا: إننا نحاول ببعض الوسائل الاصطناعية كسر طوق الصمت، وتقديم نموذج قد يؤدي تكراره إلى تحقيق غايتنا في إقامة حوار مرتجل وحار وحقيقي بين مساحتي المسرح: العرض والمتفرج. ومن المؤكدة أن هذه الوسائل ليست كافية وحدها، وقد تتحول إلى مجرد مسألة شكلية وتقنية، مالم يتوفر الأمر الأهم والأساسي في إثارة الحوار وتشجيعه وأعني أن تتوفر في العرض المسرحي ـ أي في المساحة الأولى ـ الشروط اللازمة لإثارة الحوار.. كارتباط الموضوع بحياة المتفرج ومشاكله، ونوع المعالجة، وشكلها..و.. على أن هذه الشروط لا تكفي الموهبة فقط لتحقيقها، وإنما تحتاج إلى بحث طويل في ظروف البيئةوبنيتها.

وللأسف حتى الآن لم نشرع جديا في هذا البحث.

إنني أحلم بمسرح تمتلئ فيه المساحتان. عرض تشترك فيه الصالة عبر حوار مرتجل وغني يؤدي في النهاية إلى هذا الإحساس العميق بجماعيتنا وبطبيعة قدرنا ووحدانه.

■ هذه المسرحية ليست إلا مشروع عمل لن يتم إلا بعد أن تتوفر له مجموعة متجانسة ولها رؤيتها، تقوم ببنائه وبلورة إمكانياته من خلال بحث دؤوب، لا تتوقف حدوده عند الهواجس الجمالية، بل تتعداها إلى

المشكلات السياسية والاجتماعية للواقع. إن كل تجربة عرض لهذه المسرحية ينبغى أن تكون فى الوقت نفسه تجربة بحث ظروف البيئة الراهنة، وشروط الاتصال بالمتفرج والتفاعل معه. دون ذلك، هذه المسرحية تفقد كل مبرراتها وقيمتها أيضا.

■ عندما أقول إن المسرحية ليست إلا مشروعا للعمل، فإننى أعنى وجود بعض الثغرات والمساحات الفارغة، التى تركت عمدا كى يملأها «العرض المسرحى» بما يلائم الظرف والمكان . ليست لهذه المسرحية بداية دقيقة، والسياق نفسه يمكن ألا يتخذ شكلا صارما ومعماريا. نحن فى مقهى.. والمقهى ليس مكانا للحدث المسرحى، بل هو المسرح نفسه خشبة وصالة والجو الذى يسوده له دور صميمى فى المسرحية. فمن خلاله ستعمدإلى كسر الطوق اليابس للعرض المسرحى، وسنتخلص من طقوس العمل الدائرى التام، لتنبعث بعد ذلك نوعا من الألفة بين المتفرجين، يتيح لنا تقديم صورة عفوية تتخللها حكاية ذات مغزى. لهذا فإن البداية ليست مرهونة بساعة معينة أو بافتتاح صارم إننا نبدأ فقط عندما يعم إحساس منشود بالألفة. وتتلاشى الغرابة الأولى، التى يحسها المرء حين يجد نفسه وسط جماعة، هى الأخرى بمجموعها تحس بالغرابة إزاء قصة وشخصيات ومناظر تراها لاول مرة.

باختصار إنى أقترح شكل «سهرة المنوعات» لعرض مسرحى. ولاشك جو المقهى يتيح لنا فرصة ممتازة لذلك. وهذا الشكل لا يلتصق بهذه المسرحية فقط وإنما يمكن التوسع فيه، واستنفاد إمكانياته فى أعمال كثيرة لأن المهم فى النهاية هو أن نتجاوز شكلا صارما لمسرح،،

حتى الان لايزال المتفرج عندنا يجد نفسه غريبا إزاءه. وهو يبذل مجهودا خاصا - مجهودا ثقيلاً بالطبع - كي يتلاءم مع هذا الشكل أو يألفه.

■ وباعتبار ما سبق، فإن أحاديث الزبائن، وتدخلهم فى مجريات الأحداث، وتطلياتهم ليست إلا اقتراحات أو ما سميته وسيلة اصطناعية لتشجيع المتفرج على الكلام والارتجال والحوار.. ولهذا فمن الممكن فى ضوء أى إخراج أن يعاد النظر فى هذه الأحاديث، أو أن تبدل صيغتها وتحول إلى العامية..

■ يمكن تقديم هذه المسرحية فى أي مكان، وفى أى مساحة أنا أضعها الآن فى مقهى، ولكن ذلك لا يمنع من تقديمها فى أى مكان..

وبكلمة واحدة.. إنى أبحث عن عرض حى لحكاية تهمنا جميعا. ولذا أتصور استخدام كل الوسائل الممكنة كى نصل إلى هذا العرض الحى الذى أتمناه «فرجة» ممتعة ومفيدة تدفع المتفرج إلى تأمل مصيره

• • •

مغامرة رأس المملوك جابر

{نحن في مقهى شعبي... ثمة عدد من الزبائن يتفرقون على المقاعد المبعثرة في أرجاء المقهى... معظمهم يدخنون النرجيلة ويشربون الشاي... وبينهم يروح الخادم ويجئ حاملا صواني الشاي والقهوة... إنه لن يتوقف عن الرواح والمجئ طوال السهرة. يسيطر على المقهى جو من التراخي والفوضى الشعبية. وتسود ضجة الكلام مختلطة بقرقرة النراجيل، وبأغان تنبعث من راديو عتيق في المقهى.. الأغاني تلعب دورا هاما في تهيئة الجو لبدء المسرحية. إنها ستتيح لنا الفرصة لتحقيق التآلف الذي يمهد للبدء بحكاية السهرة ينبغي أن يحس المتفرجون بنوع من الاسترخاء، وربما الطرب، شأنهم في ذلك شأن زبائن المقهى.. وكما قلت في الملاحظات السابقة، ليست هناك ساعة معينة للبدء. فالأغاني التي تذاع يمكن أن تطول فترتها، أو تقصر حسب تقدير

العاملين فى المسرحية. كذلك يتم اختيار هذه الأغانى فى زمن تقديم العاملين فى المسرحية. كذلك يتم اختيار هذه الأغانى فى زمن تقديم العمل، ووفقا للظروف التى يقدم فيها..).

زبون ١ (يصفق) يا أبو محمد.

الخادم: نعم.

زبون ١ فنجان شاى تقيل ونارة

الخادم: حاضر

(تنتهى أغنية، وتبدأ أغنية أخرى.. الضوضاء تنتشر فى المقهى. كلام وأحاديث جانبية وقرقرة نراجيل وسعلات جافة.. وزحيانا نسمع بعض الحوارات الجانبية التى تعلو فوق الأغنية)

زبون٢ صحيح.. شفت اليوم أبو إبراهيم، وبعث لك سلام معى.

زبون ٣ الله يسلمك ويسلمه. كيف حاله؟

زبون ٢ مسكين ما يزال مهموما، ولا يعرف كيف يدبر أحواله.

زبون ٣ الله يساعده ويساعدنا. ومن منا خال من الهم؟

زبون ٢ فى هذه الأيام.. والله لا أحد

زبون ٤ يا أبو محمد.. هات اتنين شاى.

الخادم: (مقتربا بصينية الشاى من زبون ١)

حاضر

زبون ١ الشاى خفيف.

الخادم: هذا خفيف. والله مثل الدبس.

على كلٍّ هل تريد أن أبدله؟

زبـــون ١ لا. ما شي الحال.

(تسود ضجة الأغنية فترة، يبدو فيها الحاضرون، وكأنهم يصغون باستمتاع تظل الرؤوس تتقارب فى أحاديث جانبية.)

زبـــون ٤ تأخر مؤنس الحكواتى. ما القصة!

الخـــادم: لاتخف.. العم مؤنس
كالساعة لا يقدم ولا يؤخر بين لحظة ولحظة فتراه يحمل كتابه.

زبـــون ٣ والله نعيش من قلة الموت

زبـــون ٢ ماذا نفعل؟ الأمر بيد الله. والمهم سترة الآخرة.

زبـــون ١ نارة..

الخـــادم: حاضر

(تنتهى أغنية، وتبدأ أغنية جديدة)

زبـــون ٥ ألن يأتى العم مؤنس اليوم؟!

زبـــون ١ لم يختلف يوما منذ عرفناه.

الخـــادم: (وهو يضع جمرة على نرجيلة الزبون) لا ريب أن العم مؤنس آت كعادته.

(الوصلة الغنائية مستمرة، ومعها ضوضاء المقهى. الخادم لا يكف عن الدوران حاملا إما صينية شاى أو موقد الفحم).

زبـــون ٤ اليوم سيبدأ العم مؤنس حكاية جديدة.

زيـــون ٢ حكاية البارحة كانت قائمة النهاية.

زيـــون ٣ من زمــان.. مـا سـمـعنا من العم مـؤنس حكاية تفـرح السامع.

الخـــادم: (من طرف المقـهى) ها هو العم مــؤنس. كل الزبائن ينتظرون تشريفك.

أصـــوات: (تتدافع، وتحدث جلبة مختلطة)

- أهلا وسهلا.

- جاء العم مؤنس.

- بان القمر.

- السهرات مضجرة لّولا رواياتك.

الحكواتى: (رافعا يده للجميع) السلام عليكم

(يتقدم بحركة بطيئة، حاملا بيده كتابا سميكا وعتيقا).

الزبـائـن: (مـعـا، وبشكل مـتـفـاوت) وعليكم السلام ورحـمـة الله وبركاته.

زيـــون ٢ أى والله.. لولا العم مـؤنس مـا كنا نعـرف كيف نقضى السهرة.

الحكواتى: من ألطافكم.

(العم مؤنس رجل تجاوز الخمسين. حركاته بطيئة. وجهه يشبه صفحة من الكتاب القديم الذى يتأبطه. التعابير فى ملامحه ممحوة، حتى ليحس المرء أنه بإزاء وجه من شمع أغبر. عيناه جامدتا النظرة، ورغم اختباط لونيهما، فإنهما توحيان بالحياد البارد. على العموم.. أهم تعبير

يمكن أن نلحظه فى وجـه مـؤنس الحكواتى هو الحـيـاد البارد، الذى سيحافظ عليه تقريبا خلال السهرة كلها).

زيـون ٥ : أقفل الراديو ما دام العم مؤنس قد وصل.

الخـادم : سنقفله.. سنقفله. ولكن دعوا العم مؤنس يشرب فنجان من الشاى، ويرتاح قليلا قبل أن يبدأ.

الـزبـائـن : ـ والله حق

ـ شاى للعم مؤنس

ـ وهات لنا أيضا شاى..

(تخفت الأغنية، ثم تتوقف بعد وقت. يأخذ العم مؤنس مكانه، ويضع كتابه فى حجره مواجها الزبائن الذين بدأوا يعدلون من أوضاعهم، ويزيحون الكراسى، كى يكونوا فى مواجهة الحكواتى، وأكثر تهيؤا للاستماع إليه. كل شئ يتم بعفوية. الخادم يحضر الشاى للعم مؤنس).

زيـون: هات ناره يا أبو محمد.

زيـون ٢ (وهو يخرج من جيبه ورقة ملفوفة) وخذ هذا التنباك.. حضر لى نفسا على ذوقك

(الخادم يروح ويجئ موزعا كلمة «حاضر» لكل طلب جديد)

زيـون ٣ أى.. وماذا يحمل لنا العم مؤنس هذه الليلة؟

زيـون ٢ هذه المرة جاء دورها.

زيـون ٣ تقصد السيرة

زيـون ٢ طبعا سيرة الظاهر. نفد صبرنا، ونحن ننتظرها.

زبــون ١ : اى والله صار اوان سيرة الظاهر بيبرس.

زبــون ٣ : يا عينى على أيام الظاهر.

زبــون ١ : أيام البطولات والانتصارات.

زبــون ٣ : أيام الأمان وعز الناس وازدهار أحوالها.

زبــون ٢ : من زمان ونحن ننتظر سيرة الظاهر.

زبــون ١ : أى يا عم مؤنس.. هل تحمل سيرة الظاهر أم لا؟

الحكواتى: (بهدوء، وهو يشرب الشاى) ما جاد دور الظاهر بعد!

الـزبـائـن: (أصواتهم مختلطة) ـ ما جاء دور الظاهر بعد!

ـ ننتظرها منذ نهاية الصيف الماضى.

ـ كل مرة نطلبها تقول ما جاء دور الظاهر بعد.

ـ بالله قل لنا.. متى سيأتى دور الظاهر إذن؟

الحكواتى: قدامنا حكايات كثيرة، قبل أن نصل إلى سيرة الظاهر.

زبــون ١ : اقلب هذه الحكايات، وافتح كتابك على سيرته.

زبــون ٢ : جفت قلوبنا يا رجل. نريد أن نسمع عن البطولات.

زبــون ٣ : وأخبار الانتصارات.

زبــون ١ : نريد أن نسمع عن الحق الذى يغلب الباطل.

زبــون ٥ : والعدل الذى يغلب الظلم.

زبــون ٣ : يا عينى على أيام الظاهر.

زبــون ١ : اقلب صفحات كتابك يا عم مؤنس، وافتح على سيرته.

الحكواتى: (الصوت الهادئ نفسه) الحكايات مربوطة بعضها ببعض. لا تأتى واحدة قبل الأخرى. سيرة الظاهر يجئ دورها عندما نفرغ من قصص الزمان الذى بدأنا حكايته.

زيــون ٢ : اى زمان!

الحكـواتـى: زمان الاضطراب والفوضى.

زيــون ٢ : هذا الزمان نعيشه.

زيــون ١ : نذوق مرارته كل لحظة.

زيــون ٣ : فلا أقل من أن ننسى همنا فى حكاية مفرحة.

زيــون ٢ : حكاية البارحة كانت كئيبة يسودّ لها قلب السامع

الحكـواتـى: هذه الحكايات ضرورية.

الـزبـائـن: ضرورية!

الحكـواتـى: وينبغى أن نرويها..

زيــون ٢ : لماذا ينبغى أن نرويها؟

الحكـواتـى: لأنهـا فـى تسلسل الكتـاب، هـى التى تقـود الى زمن الحكايات المفرحة. لكل شئ أوان، وسيرة الظاهر دورها بعد قصص هذا الزمان. لا تخافوا.. ستأتى سيرة الظاهر، وستسمعونها خلال سهرات وسهرات لكن القصص مرهونة بتسلسلها وأوانها. لكل قصة أوان (يفرغ من فنجان الشاى) والآن.. نفتح الكتاب، ونبدأ بالسلام على النبى..

الـزبـائـن: (فى طبقات صوتية متفاوتة) ـ اللهم صلّ على النبى.. ألف الصلاة والسلام على النبى.

زيــون ١ : وإذن خاب ا 'مل بسماع حكاية الظاهر.

زيــون ٣ : يا سيدى ما دام العم مونس موجودا، سنسمعها عاجلا أم آجلا.

زيــون ٢ : ألم يئنه تحضير النفس يا أبو محمد؟

الخــــادم: حالا.

زبــون ١ : إنما الرجاء الآن أن تكون الحكاية طيبة.

الحكواتى: تسمعون وتحكمون بأنفسكم.

الـزبـائـن: ـ ياالله يا سيدى..

ـ هات وأسمعنا

الحكواتى: (يبسمل بصوت خافت، وعندما يبدأ القراءة يتضح جيدا الحياد البارد، الذى يتضح من صوته ومن تعابير وجهه كلها) يا سادة يا كرام.. قال الراوى وهو الديناري رحمه الله تعالى..

الـزبـائـن: ـ آمين.

ـ والله تستحق روحه الرحمة.

ـ حكايات الديناري حبل لا ينقطع.

الحكواتى: قال الراوى.. كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان خليفة فى بغداد يدعى شعبان المنتصر بالله وله وزير يقال له محمد العبدلى. وكان العصر كالبحر الهائج لا يستقر على وضع. والناس فيه يبدون وكأنهم فى التيه. يبيتون على حال ويستيقظون على الحال. تعبوا من كثرة ما شاهدوا من تقلبات، وما تعاقب عليهم من أحداث. تنفجر من حولهم الأوضاع فلا يعرفون لماذا انفجرت، ثم تهدأ حينا من الزمن فلا يعرفون لماذا هدأت. يتفرجون على ما يجرى، لكنهم لا يتدخلون فيما يجرى. ومع الأيام اعتقدوا أنهم اكتشفوا سر الأمان فى مثل هذا الزمان، فقنعوا بما اكتشفوا، ورتبوا حياتهم على أساس ما اعتقدوه أسلم الطرق إلى الأمان.

(يدخل خمسة ممثلين.. ثلاثة رجال وامرأتان.. يمثلون جميعا

أهالى بغداد فى ذلك الزمان. يتقدمون من الزبائن، ويتوزعون أمامهم) ..

الرجل الأول: عندما يجلس على العرش الخليفة لا أحد يطلب من عامة بغداد رأيا أو نصيحة.

الرجل الثانى: وعندما يسمى الخليفة وزيره يأمرنا بطاعته.

المجموعة: فنطيعه.

الرجل الثالث: وإن غضب الخليفة من وزيره، وألح فى عزله.

المجموعة: أيدنا الخليفة، وأعرضنا عن وزيره.

الرجل الثانى: وكذلك الحال بالنسبة لقاضى القضاة.

الرجل الثالث: وكذلك الحال بالنسبة للقواد والولاة.

المجموعة: لا يطلبون من عامة بغداد رأيا أو نصيحة.

الرجل الأول: ويأمروننا بالبيعة.

المجموعة: فنبايع.

الرجل الثانى: ويأمروننا بالطاعة.

المجموعة: فنطيع.

المرأة الأولى: ذلك هو سر الأمان فى هذا الزمان.

الرجل الثالث: تعلمناه من الجلادين وسياطهم المرصعة بالمسامير.

الرجل الأول: ومن حراب الحراس وعيونهم الزجاجية.

المرأة الثانية: ومن السجون التى لا تنفتح أبوابها إلا إلى الداخل.

المرأة الأولى: من أين نطعم أولادنا، إن اهترأ رجالنا تحت السياط ووخز الحراب؟

المرأة الثانية: وماذا نفعل إن انطبقت أبواب السجون على أحبتنا؟

الرجل الثالث: وتعودنا تغير الأوضاع.

الرجل الثاني: وتعاقب الخلفاء والوزراء.

المرأة الثانية: وقتل الرجل لأتفه الأسباب.

المرأة الأولى: وغياب رجال لكذبة أو وشاية

الرجل الثالث: مالنا نحن وشؤون السادة

الرجل الأول: يأمروننا أن نبايع.

المجموعة: فنبايع.

الرجل الثالث: وفى هذا العصر المضطرب، من يعرف اليقين؟

المجموعة: ونحن عامة بغداد آثرنا السلامة والأمان. ننزف دماءنا الليل والنهار بحثا عن لقمة العيش.
ومحظوظ من تتوفر له فى بغداد لقمة العيش.
(بحركات بطيئة ينسحب الممثلون خارجين من المكان).

زبون٢ : أى والله كأن الأحوال لا راحت ولا جاءت.

زبون٣ : يا سيدى من زمان هذا هو طريق الأمان.

زبون٤ : هات واحد شاى كمان.

الخادم: حاضر.

الحكواتى: هكذا حال الناس فى بغداد فى سالف العصر والأوان حين كان الخليفة شعبان المنتصر بالله ووزيره محمد العبدلى على وفاق. وكذلك كان حالهم حين بدأ بينهما الخلاف والشقاق. وفى البداية كان الخلاف سرا، ثم انفجر، وبدأ يشيع فى ردهات القصور، وينتقل منها إلى المدينة وأسماع الناس، وكان عند الوزير محمد العبدلى مملوك يقال له جابر، ولد ذكى.. وذكاؤه

وقاد. أينما حل يحل معه اللهو والمجون. وكان كأهل بغداد آخر من يعنيه ما يجرى بين الخليفة وسيده الوزير.

(يدخل ممثلان يحملان قطع ديكور بسيطة جدا، تمثل ما يشبه رواقا فى قصر بغداد.. ويمكن هنا وفى كل المشاهد التالية الاستعاضة عن قطع الديكور بلوحات مرسومة. بعد تركيب المشهد. يتلقى الممثلان فى المقدمة. الأول يمثل المملوك جابر، شاب تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، معتدل القامة، شديد الحيوية، يمتاز بملامح دقيقة وذكية. وفى عينيه يتراءى بريق نفاذ يوحى بالفطنة والذكاء. أما الثانى فهو المملوك منصور فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره أو أكثر قليلا. قامة قصيرة، وبنية قوية. ملامح تشف عن وداعة وطيبة).

جـــــابر: (يتقدم نحو رفيقه لاهيا.. مدندنا) عندما أصبح للمسلمين خليفة، سأسميك وزيرا للدولة.

منصـــــور: : هس.. لو سمعك سيدنا وهو فى هذه الحالة، لأمر بجلدك حتى يهترئ جلدك.

جـــــابر: (يفرك مؤخرته بباطن كفه، وكأنه يساط فعلا) ولم كفى الله الشر!

منصـــــور: ألا ترى ما يجرى سيدنا الوزير متكدر المزاج للغاية.

جـــــابر: أعرف أنه متكدر المزاج. وأن الحظ يبتسم لجاريته شمس النهار.

منصـــــور: ولماذا يبتسم الحظ لجاريته شمس النهار؟

جـــــابر: (هامسا فى أذنه، وعلى وجهه تتخايل ابتسامة الخبث)

لأن سيدنا الوزير لا يشبع من وصالها عندما يتكدر مزاجه لو استمر الحال كذلك، فستصبح شمس النهار سيدة كل شئ فى هذا القصر.

منصـــــور: (يهز رأسه) كف عن الهزار يا جابر.

جـــــابر: وحياتك ليس هذرا خادمتها زمرد هى التى تنقل إلى الأخبار لقد روت لى أشياء وأشياء (تبرق عيناه) آه.. من هذه البنت يا منصور لها طريقة لا تجارى فى رواية الأخبار. (يؤدى مع الكلام حركات تمثيلية) تغمز، وتضحك، ويتثنى جسدها مع الكلام حتى يغلى دم السامع فى كل مرة أراها تجعلنى أخور كالثور. إنها محنكة كسيدتها.

تمنينى بالوعود، لكنها لا تترك لى سبيلا للوصول.

منصـــــور: (متأففا) انظروا ماذا يشغله الآن!

جـــــابر: وماذا تريد أن يشغلنى؟

منصـــــور: ألا ترى أن الأمور لا تجرى على ما يرام؟

جـــــابر: ومتى كانت الأمور تجرى على ما يرام؟:

منصـــــور: هذه المرة يختلف الحال. تعقَّد الوضع، وأصبح فى غاية الاضطراب.

جـــــابر: يستطيع الوضع أن يتعقد، ويضطرب حتى يصبح كمياه دجلة، ولكن بعيدا عنى.

منصـــــور: بعيدا عنك! الأحوال تضطرب بيننا ومن حولنا. إن الخلاف على أشده بين الخليفة والوزير.

جـــــابر: وما لنا نحن هل تريد أن نمنعهما من الاختلاف؟

منصـــــور: ومن نحن حتى نتدخل بين الخليفة والوزير.

جـــــابر: إذن.. ليختلفا، وليفقأ كل منهما عين الآخر. لن ألطم خدى، وأمزق ثيابى لأن الخليفة والوزير مختلفان.

منصـــــور: هس.. (ويلتفت حوله خائفا أن يكون حولهما سامع) اغسل فمك، وإلا رموا عنقك. لن أندهش لو رأيتك يوما مقطوع اللسان.

جـــــابر: وأنا لن أندهش لو رأيتك مشنوقا لأسباب سياسية. أم نسيت أن المشانق فى بغداد، لا تنشطها إلا الأسباب السياسية. ما الذى يعنيك فى خصام الخليفة والوزير حتى تنشغل إلى هذا الحد؟ (لحظة، وبحيوية) اسمع.. لقد بدلت رأيى.

منصـــــور: بدلت رأيك؟

جـــــابر: لا يعجبنى اهتمامك بهذه الشئون. ستكون بارعا فى حوك المؤمرات لو سميتك وزيرى.
(يبدأ منصور بالتأفف، ويحاول مقاطعته، لكن «جابر» يتابع بنفس المرح) عندما أصبح خليفة، سأبحث عن وزير غبى وأمين. ذلك أضمن.

منصـــــور: هو.. هو.. بالله دعنا من مزاحك.

جـــــابر: ولكن لا أفهم لماذا تبدو كالصوص الغارق فى الماء! كل هذا لأن الخليفة والوزير مختلفان.

منصـــــور: وصل الخلاف حدا شديد العنف.

جـــــابر: ينبغى أن يكون الخلاف شديد العنف، كى يليق بخليفة ووزير.

منصـــــور: وإذن لا تقدر الخطر الذى يحيط بنا، النتيجة هى الأخرى

ستكون عنيفة. من رأى سيدنا الوزير يخرج من الديوان أمس، حسب أن عاصفة تهب، كان قانى العينين، كامد الوجه، يقضم شاربه بأسنانه.

جـــــابـر: إذا بدأ سيدنا الوزير يقضم شاربه بأسنانه، فهو ينوى شيئا مريبا دون شك.

منصــــور: فور خروجه بادر إلى الاتصال بأصحابه، لا أحد يعلم ما يجرى، إلا أننى أشم رائحة خطر عظيم.

جـــــابـر: لو ذبح أحدهماالآخر، فستصبح فى بغداد وظيفة شاغرة.

منصــــور: ونحن؟ هل فكرت ماذا سيحل بنا؟.

جـــــابـر: ماذا سيحل بنا! ننزوى جانبا ونتفرج.

منصــــور: قد نتفرج على جهنم قبل ذلك.. بالله كيف تريدنا أن نتفرج على فتنة تقع بين الخليفة وسيدنا الوزير.

جـــــابـر: كما يتفرج كل الناس.. نفتح أعيننا ونتسلى لمتابعة ما يجرى.

منصــــور: ويريد أن نتسلى أيضا! أما مجنون! فكر فى مصيرنا لو شبت نار الفتنة

جـــــابـر: وما علاقة مصيرنا؟ قد الوزير من الكمد، أو يتوقف قلب مولانا الخليفة من الغضب. أما نحن، فلن تنفجر لنا مرارة، أو يتوقف لنا قلب.

منصــــور: من السهل أن تقول ذلك، ولكن لو اندلعت النار، فستكون الحطب الذى يغذيها.

جـــــابـر: يغذى النار من أوقدها.

اسمع. ولم لا نتدفأ بالنار بدلاً من أن تحرق أصابعك بها؟

منصـــور: لن نستطيع. سيجرونا وراءهم، وسنجد أنفسنا فجأة وسط اللهب. في النهاية نحن من يدفع الثمن.

جـــابر: وما أدراك قد نقبض بدلا من أن ندفع.

منصـــور: أهذا ما تأمله؟

جـــابر: ولم لا .. لكل عملة وجهان والمهم أن تميل في الوقت المناسب إلى الوجه الكاسب..

زيـــون١ : ابن زمانه..

زيـــون٢ : هذا المملوك شيطان.

جـــابر: (أثناء حديث الزيونين، يظل منغمرا في متابعة مجرى ما يريد قوله.. تبرق عيناه. وقد خطرت له فكرة مفاجئة) أقول لك.. تعال نتراهن!

منصـــور: وعلام نتراهن؟

جـــابر: على الوجه الكاسب.. انتظر..

(يزداد بريق عينيه، وهو يفتش في جيوبه)

اللعنة نسيت أني أعطيت كل ما أملك لزمرد. آه من النساء! يتجملن بنقودنا، ليأخذن نقودنا مرة أخرى. ألديك قرش؟ فتش في جيبك عن قرش.

منصـــور: (يتابعه ببلاهة) ماذا تريد أن تفعل؟

جـــابر: (يمد يده ملحا والبريق يتقد في عينيه) هات قرشا، وسترى..

منصـــور: لن أعطيك قرشا هكذا لوجه الله.

جـــابر: لا تخف. قرشك محفوظ، ولن آخذه.

(يخرج منصور على مضض قرشا من جيبه، فيخطفه جابر،

ويفركه بين أصابعه إنه يبدأ لعبة. حركاته تسارع، وكذلك كلماته) انظر.. الحكومة كلها فى هذا القرش. (يتوقف الخادم فجأة وهو يحمل صينية وينتبه ناحية الممثلين متابعا لعبتهم باهتمام).

زيــــون: بعدَ من قدامنا يا أبو محمد.

(يغير الخادم مكانه.. بينما جابر يوالى كلامه ولعبته دون أن يتوقف).

جــــابر: الخلافة والوزارة معا. الوجه الأول يمثل الخليفة، والوجه الثانى يمثل الوزير. كلاهما فى هذا القرش، فلنتراهن على الكاسب. (يرميه فى الجو. ثم يلتقطه، ويخفيه بين راحتى يديه) أيهما تختار الوجه الأول أم الثانى؟ الخليفة أم الوزير؟ يا الله.. اختر أحد الوجهين. كل الدولة فى هذا القرش. الخليفة أم الوزير؟ (لحظة) أخمن أنك ستقول الخليفة.

منصــور: (انساق مع جابر على غفلة منه. تفاجئه العبارة) ما الذى يجعلك تخمن ذلك؟

جــــابر: أعرف كيف تفكر. تحسب أن الخليفة لمجرد أنه خليفة هو دائما أقوى. لا .. لا تعتمد على ظواهر الأمور. فكم من خليفة لا يقدم ولا يؤخر مثقال ذرة. له من الخلافة اسمها وسرايا الحريم فقط معاذ الله أن أقصد مولانا الخليفة بسوء. لكن أحذرك من الاعتماد على ظواهر الأمور. والآن ماذا قلت؟ هل بدأت تميل نحو سيدنا الوزير؟

منصــور: (ما يزال منساقا مع اللعبة، وعلى وجهه انزعاج وضيق) أميل نحو سيدنا الوزير؟

جـــــــابر ربما.. ولكن تذكر أن لهذا الأمر أيضا مخاطره

منصـــــور: (منتبها إلى نفسه. بدأ يغضب) لم أراهن على أحد، ولم أقل شيئا.

جـــــابر: ماذا تنتظر إذن؟ التردد هو الآخر له مغبته. الخليفة أم الوزير؟

منصـــــور: (ملتفتا حوله) أعوذ بالله.. أرجو أن أحدا لا يرانا أو يسمعنا.

جـــــابر: هدئ أعصابك، ولا تفسد الرهان. الربح قرش، والخسارة قرش، وبينهما خليفة المسلمين ووزيرهم معلقان. فقل كلمة وخلصنا.

منصـــــور: لعنة الله عليك. لم أر في حياتي ما جنا مثلك. رُد لي قرشي.

جـــــابر: قد أكسبه. لو أخطأت التخمين يصبح قرشي.

منصـــــور: لا أريد أن أخمن. هات قرشي.

جـــــابر: ولماذا لا تفك عقدة وجهك يا منصور؟ دعنا نتسل قليلا. طيب.. إذا شئت سألعب بمفردي، سأقول.. (يتلكأ) ماذا أقول؟ وما الفرق! لنقل.. (وبعد لحظة) الخليفة (يرفع كفه التي تخفي القرش، وينظر. يتخذ صوته طابعا مأساويا نادبا) يا خيبتي إنه الوزير فليبك المسلمون إذن خليفتهم. أراهم يحزّون عنقه، ويسيل الدم كالنافورة.

منصـــــور: (مرتبكا. وفي غاية الحرج والضيق) أستغفر الله العظيم..

جـــــابر: معنى ذلك أننا نرتفع مرتبة. إذا علا مقام سيدنا الوزير، يعلو أيضا مقام مماليكه. لكن شوطا واحدا يكفي. السباق الصحيح لا يستقيم إلا بثلاثة أشواط. والآن إلى الشوط الثاني. لنرم القرش مرة أخرى. (يرمي القرش برشاقة. يهم منصور بخطفه، ولكن جابرا يلتقطه كالمرة السابقة ويخفيه بين كفيه) ساعدني منصور قل شيئا

منصـــور: لن أشترك فى عبثك ومجونك. الخطر يحيط بنا كالهواء، وأنت تلعب. رد لى قرشى.

جـــابر: انتظر.. انتظر. يجب أن نعرف النتيجة. والآن ماذا أقول. لو تكرر ظهور الوزير تنتهى اللعبة. (موجها الكلام إلى القرش المختفى بين يديه) على أى وجه تستقر أيها القرش! ستقرر مصير دولة بأسرها. أعرف أن تقلباتك مجنونة لا يحكمها ضابط، ولكن قد يجعلنا الحظ نتلاقى. وجدتك ميالا إلى الوزير. فالراهن إذن على الوزير (إلى منصور) تعال وانظر.. (ويبدأ برفع كفه تدريجيا) بأى وجه ستطالعنا.. بأى وجه بأى وجه! إنه الخليفة. واحدة بواحدة. بقى شوط أخير، وعليه تتوقف أمور كثيرة.

(يفرك جابر القرش، ثم يرميه من جديد، لكن «منصور» يسرع فيلتقطه غاضبا، ويضعه فى جيبه)

منصـــور: (وهو ينسحب) لعنة الله عليك.. لا حدَّ لاستهتارك.

جـــابر: بقى شوط واحد. فلم تفسد لعبتنا! (يبتعد منصور ولا يجيبه. فيلتفت جابر صوب الزبائن، متأهبا بدوره للإنسحاب) لو أعرف فقط، ما الذى يعنيه فى خلاف ينشب بين الخليفةوالوزير! (يهز كتفيه ويمضى)

زبـــون: (لجاره) ما قولك! والله ولد ابن زمانه.

زبـــون ٢: لا شئ يشغل باله.

زبـــون ١: لا خليفة ولا وزير.

الخـــادم: (وهو يدور بالموقد) ناره.

زبـــون ٢: تعب قلب ووجع رأس بلا فائدة.

زبـــون ٣: تعال هنا..

(الخادم يقترب من الزبون الذى يناديه، حاملا الملقط وموقد النار).

الحكـواتـى: (يستأنف بعد أن يخلو المسرح) هذا ما بدا من المملوك جابر حين سمع عن الخلاف الدائر وكانت الأمور تتطور بسرعة، وتشيع الأنباء بين الناس كالوباء؛ فقد قضى الخليفة ليله مجتمعا بقواد الأمن. وفى الصباح ظهرت فى بغداد إجراءات حازمة ومنذرة .وكان الوزير يرغى فى ديوانه، وحوله عدد من أصحابه. أمراء وتجار كبار. أما أهل بغداد فما إن شاعت بينهم الأنباء، حتى يسرعوا كعادتهم يتزاحمون حول الأفران، ليؤمنوا خبزهم لأيام..

(يدخل الممثلون الخمسة الذين رأيناهم من قبل يمثلون أهل بغداد، وهم يحملون معهم شباك فرن وبعض القطع الأخرى التى يمكن أن توحى بمنظر شارع عام. يضع الممثلون قطع الديكور ويركبونها أمام المتفرجين. يمكن هنا كما فى كل المشاهد، الاستعاضة عن ذلك بالبانوهات المرسومة. بعد إعداد المنظر يبدأ التمثيل. إنهم ينتظرون بنفاد صبر وقلق أمام شباك الفرن.

يتطلعون إلى الداخل، ويتعجلون الفران. متعبون وعلى وجوههم اضطراب وشعور عميق بانعدام الأمن).

المرأة الأولى: أف.. منذ الصباح وأطفالى وحدهم فى البيت. لو كنت أعلم لحملتهم معى.

الرجل الثالث: انتصف النهار ونحن في الانتظار.

الرجل الأول: (مادًا عنقه فوق رؤوس الآخرين نحو شباك الفرن) ولكن ماذا يفعلون بحق الله؟ أخشى أن يكونوا نائمين.

الرجل الثاني: (وهو أقربهم إلى الشباك. يوجه الكلام إلى الفرّان). يا الله يا أبو عمر!

صوت الفران: (من الداخل) وهل ترانا نتثاءب؟ منذ منتصف الليل لم تهدأ أيدينا.

الرجل الأول: ومع هذا، نحن ننتظر منذ وقت طويل.

صوت الفران: ماذا نفعل؟ كل واحد يطلب اليوم أضعاف حاجته.

الرجل الأول: أمر طبيعي في مثل هذا اليوم.

المرأة الأولى: إذا وقعت الواقعة فمن يعرف متى تنتهي.

صوت الفران: إذن امسحوا وجوهكم بالرحمن، وانتظروا.

المرأة الثانية: (وهي تجلس) أف.. يبست أقدامنا ونحن ننتظر.

الرجل الثاني: ما الفائدة؟ سننتظر. لابد من الخبز.

الرجل الثالث: (يجلس بدوره) في هذا الوقت الخبز أهم شيء. إذا توفر في بيتك ضمنت نصف السلامة.

المرأة الأولى: ووراءنا أطفال سيصرخون إن لم يجدوا لقمة الخبز.

الرجل الثاني: لن نذهب قبل أن نؤمن خبزنا لثلاثة أيام أو أربعة.

المرأة الثانية: أربعة أيام (تتنهد) محظوظ من يستطيع أن يشترى خبزا لأربعة أيام.

الرجل الثاني: أختي. لاتظني بي اليسر. والله سأفرغ كيسي كله في يدالخباز.

الرجل الأول: أفضل لنا جميعا أن نفرغ أكياسنا الهزيلة الآن. بعد قليل سيصبح ما فيها كالعملة الباطلة.

المرأة الأولى: ماذا تقصد؟

الرجل الأول: (خافض الصوت، كأنه يسرلهم) حتى الآن.. لم يرتفع سعر الخبز إلا قليلا، ولكن ساعات..

المرأة الثانية: (تقاطع باندهاش وقلق) هل رفعوا سعر الخبز؟

الرجل الأول: ألم تعلمى؟

الرجل الثالث: بدأ الغلاء مع الصباح.

الرجل الأول: رفعو السعر قرشا. لكن خلال ساعات سترتفع الأسعار كالحمى، وستصبح قروشنا كالعملة الباطلة.

المرأة الثانية: أعوذ بالله.. لا تفتح علينا هذا الباب.

الرجل الأول: أأنا الذى أفتحه! كأنك لا تعرفين تجار بغداد. إنهم يزقزقون اليوم.

الرجل الثانى: يزقزقن ويغردون.

المرأة الأولى: خزاهم الله لو. استطاعوا لأكلوا لحومنا نيئة.

الرجل الثالث: هذا اليوم يومهم.. ولو تطورت الأزمة لأصبح كل شئ أغلى من الذهب

الرجل الأول: لو تطورت! وماذا تسمى ما يجرى إذن! إنها تتطور وبسرعة مخيفة.

الرجل الثانى: فعلا.. وإلا ماذا يعنى خروج الحراس من ثكناتهم!

المرأة الأولى: (تشهق) آه.. بالله لا تذكرنا.

المرأة الثانية: أجارنا الله.. فاجأتنى وجوههم عند المنعطف، فارتخت ساقاى، وكدت أسقط.

المرأة الأولى: رؤية الموت أهون.

الرجل الثانى: اكتسحوا الأسواق كالعاصفة. كان الناس يختفون فى الجدران وهم يرتعشون. لاأستغرب لو أن بعضهم بال فى سرواله.

(بينما الحوار مستمر. يدخل رجل رابع يحمل كيسا فارغا. يمكن ان يقوم بدوره الممثل الذى يقوم بدور منصور، وإن بدا الان اكبر سنا. ينضمإالى الجماعة، ويجلس واضعا كيسه فى حجره. يلتفت الاخرون إليه. إلا انهم لا يعيرونه كبير اهتمام).

الرجل الثالث: عشت عمرا طويلا، ومع هذا لا أذكر يوما أن أهل بغداد لم يبولوا فى سراويلهم، عندما يظهر الحراس فى الشوارع.

الرجل الثانى: أما اليوم فأكثر وأكثر، كالعاصفة اكتسحوا المدينة. الم تر أسلحتهم المشهرة ووجوههم العابسة. من المؤكد انهم ينفذون قرارات خطيرة.

الرجل الاول: ملأوا الشوارع والساحات. كيفما تحرك المرء يصطدم بهم.

المرأة الثانية: سترك يارب.. ينتفض قلبى كلما تخيلت وجوههم

الرجل الثانى: كل المظاهر تدل على انها واقعة بين لحظة واخرى.

المرأة الأولى: ولا احد يعلم ما يخبئه لنا الغد.

الرجل الثانى: سبحان علام الغيوب. زمن أين لنا ان نعرف ما يخبئه الغد!

الرجل الاول: لهذا خير ما نفعله هو ان نؤمن خبزنا، ونختفى فى بيوتنا.

الرجل الثالث: هذا هو الصواب. نشترى أرغفتنا، ونمضى إلى بيوتنا.

المرأة الثانية: ولكن متى ينتهى الخباز، ويتركنا ننصرف؟

المرأة الأولى: لو علمت أننا سننتظر كل هذا الوقت، لحملت أطفالى معى.

الرجل الأول: (يلقى نظرة على الرجل الرابع) وكلما تأخروا ازدادت جمهرة الناس أمام الفرن. لن يبقى للشاطر رغيف.

الرجل الثاني: (إلى داخل الفرن) أنظل واقفين يا أبو عمر، انكسرت ظهورنا.
صوت الفران: عليكم بالصبر إلا إذا أردتم أن تشتروا عجينا بدلا من الخبز.
الرجل الثاني: اسمعوا.. بعد كل هذا الانتصار يريد أن يبيعنا عجينا بدلا من الخبز.
المرأة الأولى: أعوذ بالله! ما هذا اليوم؟
الرجل الثالث: لا خيار لنا. سننتظر ونحن مضطرون. في هذا الوقت الخبز أهم شيء.
المرأة الثانية: حتى ولو كان عجينا يغص به الآكل.
الرجل الثاني: إننا منتظرون على كل حال.
(تأفف. بعضهم ينفخ نافد الصبر وتسود لحظات من الصمت).
الرجل الرابع: لا مؤخذة.. وهل بينكم من يعرف بالضبط ما يجرى!
(يلتفت إليه الجميع، وتتفرس فيه العيون، كأنهم يكتشفون وجوده لأول مرة بينهم)
الرجل الأول: (ساخرا) بالضبط!
الرجل الثاني: ومن أين لنا أن نعرف بالضبط ما يجرى!
الرجل الأول: ألست من أهل بغداد؟
الرجل الرابع: أي وحق الله مولود فيها، وكذلك أبي وأجدادي.
الرجل الثاني: وإذن فأنت تعرف ما نعرف. لم يعد الاضطراب سرا.
المرأة الثانية: اضطراب الأحوال كالحريق لا يخفى دخانه.
الرجل الثالث: نعرف ما نراه.. وما نراه هو غيوم سوداء كالفحم تخيم على بغداد.
الرجل الثاني: كل الظواهر تؤكد أن العاصفة ستهب بين لحظة وأخرى..

المرأة الأولى: ارحم عبادك يا رب.

الرجل الثالث: وإذا هبّت العاصفة، ما علينا إلا أن ندخل بيوتنا، ونغلق نوافذها جيدا.

الرجل الأول: ألم تر الحراس وهم يجتاحون الشوارع!

الرجل الرابع: أى وحق الله رأيتهم، وتعوذت من رؤيتهم.

الرجل الأول: والتوتر! ألم تسمع بأن الوضع متوتر.. وأن الخلاف شديد بين الخليفة والوزير

الرجل الثانى: كلاهما متصلب أكثر من الآخر. ولا يبدو أن هناك سبيلا للوفاق أو التراجع.

الرجل الرابع: أى وحق الله سمعت عن هذا أيضا.

الرجل الأول والثانى: (معا وبغيظ) ما الذى تجهله إذن؟

الرجل الرابع: ما أجهله كثير. أسأل إن كان بينكم من يعرف الخلاف أو توتر الأوضاع.

الرجل الأول: يسأل عن سبب الخلاف!

المرأة الأولى: وكيف يمكن أن نعرف لماذا يختلف السادة.

الرجل الثالث: وما علاقة أمثالنا فى ذلك؟

المرأة الثانية: إنهما مختلفان والسلام. المهم أن يخلصنا الفران، ونذهب إلى بيوتنا.

الرجل الرابع: وحق الله.. من الضرورى أن نسأل عن سبب الخلاف، وأن يكون لنا رأى فيه.

الرجل الثالث: أيها الرجل.. تثير شؤونا خطيرة، عاقبة البحث فيها وخيمة.

المرأة الأولى: هل تريد أن تدهور الناس؟

المرأة الثانية: بالله عليك.. العب بهذه الشؤون المفزعة بعيدا عنا من نحن

حتى نسأل عن سبب الخلاف بين وزير وخليفة!

الرجل الثالث: الضروري بالنسبة لنا هو الخبز والأمان لا سبب الخلاف.

المرأة الثانية: أي والله، هذا كل شئ الخبز والأمان.

المرأة الأولى: سلامة أولادنا أغلى من الدنيا كلها.

الرجل الثاني: وما علاقتنا! ابعد عن الشر وغنّ له

الرجل الرابع: (دائما هادئ اللهجة، واثقا من نفسه) وحق الله لا أخالفكم الرأي.. ولكن طريق الخبز والأمان وأسفاه يمر من هذا السؤال.

المرأة الثانية: (هامسة للأولى.. يبدو الضيق وكذلك الدهشة على وجوه الجميع) ويلح في إثارة شؤونه.

المرأة الأولى: قلت لكم.. يريد أن يدهورنا.

الرجل الأول: ولماذا يمر فيه! أتأمل أن يكون الخلاف من أجل تخفيض الضرائب!

الرجل الثاني: أو من أجل تحسين أحوال الرعية!

الرجل الثالث: عشت عمرا طويلا، يا ما رأيت سادة يعلون وآخرين يولّون. أما عامة بغداد فحالهم هو هو، وإن ضمنوا السلامة كان فوزهم عظيما.

الرجل الأول: أمر معروف.. لا يختلف السادة من أجل عامة بغداد (لحظة.. هامسا) ربما كانت الخزينة تزرب.

الرجل الثاني: أو كان نزاعا على قيادة العسكر.

الرجل الأول: أو على تعيين الولاة.

المرأة الثانية: (قلقة تحاول أن تقطع الحديث) بالله أبعدونا عن هذا الحديث.

الرجل الأول: المهم.. لا يختلف السادة من أجل عامة بغداد.

(يظهر فى الشارع حارسان مدججان بالسلاح. يبدو أنهما يقومان بأعمال الدورية. تلحظهما المرأة الثانية، فيرتعش وجهها بالخوف، وترتبك.. تمسك الرجل الأول من طرف سترته، لتنبهه..)

الرجل الرابع: (وكان مطرقا) وحق الله.. ما تقولونه..

المرأة الثانية: (برعب، والحارسان يقتربان) هسّ..

الرجل الرابع: (ينتبه إلى اقترابهما.. يغير الكلام، ويواصل دون تلعثم.. يتابعه الآخرون بخوف ودهشة) فلما حط الحمال حمولته على تلك المصطبة ليستريح، خرج عليه من الباب نسيم رائق (كلما اقترب الحارسان يعلو صوته) ورائحة ذكية، فاستلذ الحمال لذلك، وجلس على جانب المصطبة، فسمع نغما وأوتارا وعودا وأصواتا مطربة (يتوقف الحارسان قرب الجماعة) فعندئذ تعجب وتقدم يتبع الصوت. دفع الباب. ودخل.. فوجد أمامه بستانا عظيما، ورأى فيه غلمانا وخدما وحشما، ثم هبطت عليه رائحة أطعمة زكية من جميع الألوان المختلفة والشراب الطيب، فرفع طرفه إلى السماء، وقال: ماذا قال؟ (يتوقف لحظة، وكأنه يشوق السامعين).

الحارس ١: يتسلون، ويروون حكايات.

الحارس ٢: أشعر بالجوع.

الحارس ١: لم تنته الدوبة.. هيا بنا..

الرجل الرابع: (يوالى.. بينما يبتعد الحارسان) قال.. سبحانك يا رب يا خالق. وعندها لمح صبية ذات حسن وبهاء..

(يختفى الحارسان، فيتوقف الرجل الرابع. يتنهد الجميع بارتياح، وكأنهم خرجوا من محنة. بعضهم يجفف حبات عرق تفصدت من الوجوه).

المرأة الأولى: (ساقاها ترتجفان، فتجلس) آه.. لا تحملنى ساقاى بعد.

المرأة الثانية: عمرى ما رأيت سحنة الحراس مخيفة مثل اليوم.

المرأة الأولى: سحنتهم دائما مخيفة ولو لم ينظروا إلينا.

الرجل الأول: (بما يشبه الحنق) أرأيت إن كان ضروريا أن نسأل!

الرجل الثانى: لماذا لم تسألهم عن سبب الخلاف؟

الرجل الثالث: ولكنك تصرفت بفطنة أيها الرجل.

الرجل الرابع: وحق الله أخافهم مثلكم.. وشعرت قلبى يكاد أن يتوقف لكن أنظل كالعميان لا نعرف إلى أية مهاو تدفعنا الأحداث.

المرأة الأولى: (بعنف) إذا كنا عميانا ونحن بين أهلنا، أفضل من أن نعمى فى ظلام الزنزانات.

المرأة الثانية: بالله عليك كفى.. لم تر بعينيك! سنشترى خبزنا، وننزوى مع أهلنا فى بيوتنا.

الرجل الأول: لدى السادة دائما أسباب كافية للخلاف. أما نحن فلا ناقة لنا ولا جمل.. (لغط بين الزبائن، ثم يتوضح..)

زبـــــون١ : هو بعينه...

زبـــــون٢ : الشخص الذى كان مع المملوك.

زبـــــون٣ : وما يزال يحمل السلم على ظهره.

زبـــــون١ : (صوت عال) أخى نزل هذا السلم عن ظهرك.

الرجل الرابع: (يقطع التمثيل ملتفتا إلى الزبائن) آه.. لو أستطيع.

زيـــــــون٣: هذه سوسة، إذا سكنت الرأس صعب انتزاعها.

الحـكـواتـي: (يعلو صوته، ليسيطر على الموقف، فيمنع انقطاع خيط الحكاية بالنقاش) وتناول الرجل العجوز الكلام، فأورد ما علمته الأيام.

الرجل الثالث: سأقول لك شيئا.. عشت عمرا طويلا يكفى لكى يتعلم المرء كيف تجرى الأمور هنا. مهما اشتدت الخلافات بين سادتنا، وفرقت بينهم المصالح، فإنهم يظلون متفقين على شىء واحد. أتعرف ما هو أيها الرجل الذى لا تنقصه الفطنة؟

الرجل الرابع: أتمنى أن أعرف ما هو..

الرجل الثالث: هو ألا نتدخل نحن العامة فى شؤونهم وخلافاتهم. ولو فعلنا لتوحدوا فورا، واتجهوا بكل قواهم نحونا.

المرأة الأولى: وبعدئذ تمتلئ السجون.

الرجل الثانى: ويختفى الرجل.

الرجل الرابع: وحق الله وأنا عشت طويلا. ما فات من العمر أكثر مما بقى. اعرف أن ما تقوله صحيح. أعرفه كما أعرف سجون بغداد وسياط جلاديها.

المرأة الثانية: هل كنت فى السجن؟

الرجل الرابع: أى وحق الله كنت فيه.

المرأة الأولى: ليس غريبا أن تعرف السجون ما دمت تحب كثيرا طرح الأسئلة.

الرجل الثانى: (بانتصار ولوم) أرأيت.. هذا كل ما يجنيه المرء فى النهاية.

المرأة الثانية: وبما أنك خرجت اعتبر نفسك مولودا. وتعلم الابتعاد عن المشاكل.

الرجل الرابع: كنت مثلكم أعتقد أن هذا ما ينبغى أن يتعلمه الإنسان كى يجد طريق الأمان.

الرجل الأول: ثم وسوس لك الشيطان، فبدلت اعتقادك، فاستضافتك السجون.

الرجل الرابع: أى وحق الله قضيت فترة ليست قصيرة فى السجون، ومع هذا فقد ازددت يقينا بأن ما تقولونه لا يقود إلا ما إلى نحن فيه، نهترئ كالنفايات، ونجرى قلقين كالكلاب الملدوغة، وندفع ضريبة خلافات لا نعرف أسبابها ولا مغزاها.

المرأة الأولى: تلك قسمتنا.

الرجل الثانى: ستعود حتما إلى السجن.

المرأة الثانية: تريد أن تودى بنا جميعا.

المرأة الأولى: أى والله هذا ما تريد أن تفعله.

الرجل الأول: نحن لا نحب السجون.

الرجل الرابع: وحق الله وأنا مثلكم لا أحب السجن، ولا أتمنى أن أتذكره.

الرجل الأول: إذن اترك هذه الشؤون، وابتعد عنها ما استطعت.

الرجل الرابع: إلا أنى لا أحب أيضا عيشة الكلاب التى أعيشها. كما لا أحب أن أدفع رأسى ثمنا لاضطراب لا رأى لى فيه.

الرجل الأول: وماذا يستطيع أن يفعل مثلك ومثلى! الخلاف يدب بين الخليفة ووزيره.

(هنا ينقسم الممثلون الخمسة إلى مجموعتين يتوزعان الحوار الشبيه بالمونولوج. إنهم جميعا فى مواجهة الرابع..)

المجموعة ١: مولانا الخليفة عنده حراسه وقواته.

المجموعة ٢: وسيدنا الوزير له حراسه وقواته.

المجموعة ١: قد يقع الصدام بين لحظة ولحظة.

المجموعة ٢ : فلماذا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة!

المجموعة ١ : الخلاف بين وزير وخليفة.

المجموعة ٢ : لكل منهما قصد وخطة.

المجموعة ١ : أما نحن فلا ناقة لنا ولا جمل.

الرجل الرابع: (يحاول أن يحتفظ بهدوئه) أراكم تنسون أيها الناس الطيبون إنهما يتعاركان فوق رؤوسنا.

المجموعة ٢ : ننتظر ونرقب النتائج.

المجموعة ١ : ومن يتزوج أمنا نناديه عمنا.

المجموعة ٢ : هذا هو.. من يتزوج أمنا نناديه عمنا.

(تتدافع من الزبائن تعليقات تختلط بها احتجاجات الرجل الرابع).

زبـــــون١ : والله.. عين الصواب.

زبـــــون٢ : هذا مقال من يريد راحة البال.

زبـــــون١ : صرعة مالنا فيها.

الرجل الرابع: لا.. لن تنجو رؤوسنا.

زبـــــون٣ : طريق مأمون من قديم الزمان .. من يتزوج أمنا نناديه عمنا.

الرجل الرابع: فوق رؤوسنا يتعاركان. فوق هذه الرؤوس البائسة ستنزل أقسى الضربات. إننا نتخلى عن رؤوسنا نسلمها إلى الجلادين، وأسوأ من الجلادين.

زبـــــون١ : انتبهوا.. يحرضكم على الفتنة.

زبـــــون٣ : نوع من الرجال يحب إثارة المشاكل، لكي يتفرج بعدئذ على المشاكل.

المرأة الثانية: بالله عليك افتح جرابك الخطير بعيدا عنا.

الرجل الثالث: إذا شئت يمكنك أن تتصرف برأسك كما يحلو لك.

المجموعة: (تقلد طريقته بالكلام) وحق الله فكرة. لك رأس كسائر الناس. فافعل ما يحلو لك، واترك رؤوسنا لنا.

المرأة الأولى: (صائحة، تقف فجأة) أتشمون! رائحة الخبز..

أصوات: - الخبز

- دورى أنا!

- أخيرا بعد هذا الانتظار.

(ينهضون جميعا باستثناء الرجل الرابع، الذى يتابعهم بعينين حزينتين يتدافعون أمام شباك الفرن فى هياج وتعجل).

صوت الفران: لمن الدور؟

المرأة الأولى: أولادى وحدهم فى البيت منذ الصباح.

الرجل الثانى: وراءنا جميعا أهل ينتظرون فى البيت. جئت قبل الكل

صوت الفران: اتفقوا على الدور أولا.

الرجل الثانى: لى. بالتأكيد لى. تذكر ألم أكن أول من جاء يطلب خبزا.

صوت الفران: ربما. ولكن المهم أن تكونوا بالدور.

المرأة الأولى: (راضخة، تقف وراء الرجل الثانى) لم تعد هناك شفقة.

الرجل الثالث: (يقف آخر الصف، بينما يظل الرجل الرابع جالسا) ليأخذ كل دوره، ذلك أفضل.

(يبدأ الجميع بالانتظام فى صف أمام الشباك كل واحد يشترى خبزه ويمضى).

الرجل الثالث: (للرابع) انهض، وخذ دورك قبل أن يأتى من يأخذه.

الرجل الرابع: وحق الله. ليس هذا هو طريق الأمان.

الرجل الثالث: اشتر خبزك. وتحصّن فى بيتك لن تصلح العالم على كل حال.

الرجل الرابع: إذن خذ مكانك. واشتر خبزك.

(يشترى الناس خبزهم ويمضون مسرعين.
يصبح الرجل الثالث عند الشباك، فينهض الرجل الرابع متثاقلا. ويقف وراءه منتظرا دوره).

زبون٢ : أى انهض أخى.. انهض . ذلك أفضل.

(يشترى الرابع بضعة أرغفة، يدسها فى كيسه، ثم يلقى نحو الزبائن نظرة عاتبة وحزينة).

الرجل الرابع: (وهو يمضى) وحق الله ليس هذا طريق الأمان.

الحكواتى: هذا ما كان من أهل بغداد. من استطاع منهم اشترى خبزه، ومضى مسرعا إلى بيته. أما قصر الوزير محمد العبدلى فلم تكن تهدأ فيه الحركة. مماليك ينزلون إلى المدينة، ويعودون إلى الوزير بالأخبار. يدخلون ديوانه، ويخرجون مرتعدين يتبعهم السباب والصياح الغاضب، لكن لا يمر بعض الوقت حتى يأتى الأمر بالنزول مرة أخرى إلى المدينة، فيذهب من يتسقط الأنباء، ويراقب مجرى الحال. وشاعت فى الأروقة أخبار وحكايات. وكان الجميع يتمنون لو تظل الأحداث بعيدة عنهم، فلا تقربهم أو تصيبهم، لكن «جابر» سمع خبراً سال له لعابه. فجأة رأى الأبواب مفتوحة أمامه، فاندفع يجرى وراء أحلامه.

زبون: المملوك جابر نفسه.

زبون٢ : لابد أنه خبر هام حتى يهتم له جابر.

زبون١ : هات يا عم مونس. ما هذا الخبر؟

الحكواتي: انتظروا وسيأتي الجواب.

الخـــادم: (منتهزا الفرصة، يدور بموقد الفحم) نارة.

زيـــون: هنا يا أبا محمد.

الخـــادم: حاضر.

(أثناء الحوار السابق، يعود بنا المشهد إلى رواق في قصر الوزير.. يظهر المملوك ياسر طويل القامة، وافر الصحة. وجهه عريض تطفو على ملامحه بلادة توحي بالجلافة والطيبة يمشي. مهرولا، حاملا على وجهه أمارات الاضطراب والفزع. يلتقي بالمملوك جابر، ويكاد أن يصطدم به، فيستوقفه).

يـاســـر: يا حفيظ

يـاســـر: يا حفيظ تحدث في هذه المدينة أمور جسيمة.

جـــابر: ماذا أصابكم اليوم جميعا؟ لن تقول إنه يوم الحشر.

يـاســـر: لا أدري إذا كان يوم الحشر أم لا. لكني أكاد لا أصدق أني خرجت من الديوان بسلام. (يمسح العرق عن جبينه) شعرت روحي تنخطف من جسدي.

جـــابر: أكاد أعتقد أن سيدنا الوزير تقمصه عفريت. قل لي.. هل نبت في رأسه قرنان، أم تدلى من فمه نابان؟

يـاســـر: أتمزح! آه لو ترى وجهه وهو يتلون ويحتقن. نظر إلي وكأنه يريد أن يمسحني عن وجه الأرض. يا حفيظ لو تعثرت قدماي في الخروج، لرمى عنقي دون تأجيل. ولو أعرف ما ذنبي! هل أستطيع أن أكذب. كل الناس يعرفون أن أبواب بغداد أصبحت مسدودة، وأن الحراس ينتشرون عليها كأنهم جند الموت؟

جـــــــابر: أى حراس.

يـاســـــــر: حراس مولانا الخليفة. يا حفيظ.. إن أحداثا رهيبة تقع حولنا. سمعت أن الخليفة لم يغادر البلاط هذه الليلة، ولم ينم لحظة واحدة.

جـــــــابر: ولم؟ هل خاف أن يجردوه من سرواله وهو نائم؟

(يقترب منهما منصور، وينضم إليهما)

يـاســـــــر: بل كان.. (يتوقف فجأة، وكأنه اكتشف شيئا مزعجا) يا حفيظ مازلت تمزح؟

جـــــــابر: الطاعون يفتك ببغداد يا منصور. أصبحت الرعية كلها تشتغل بالسياسة.

يـاســـــــر: (فزعا) أأنا أشتغل بالسياسة! كنت أروى ما سمعت لا أكثر.

منصـــــور: لا تلق بالا إليه. ألا تعرف لسانه! ألديك أنباء جديدة؟

يـاســـــــر: كل الناس يقولون.. إن مولانا الخليفة لم ينم لحظة واحدة هذه الليلة. (يخفض صوته) ظل مجتمعا بقواد الأمن حتى الصباح.

منصـــــور: كنت أعلم أنها لن تنتهى ببساطة.

يـاســـــــر: يبدو أنهم اتخذوا قرارات خطيرة، فمع طلوع النهار خرج الحراس من القصر يحملون عتادهم، وكأنهم يمضون إلى الحرب. اخترقوا الشوارع فأرهبوا الناس، ثم انتشروا على أبواب المدينة أصبح الخروج من بغداد أصعب من دخول الجمل فى ثقب الإبرة.

جـــــــابر: إجراء يوفر على الخليفة بناء سجون جديدة.

منصـــــور: أرأيتهم بعينيك؟

يـاســـــــــر: رأيتهم! يا حفيظ.. منذ قليل كنت هناك. سيدنا الوزير منزعج للغـاية. أرسلني كي أتجـسس لـه، وأخـبـره بما يجـرى على الأبواب. وعندمـا أخـبرته غـضب مني. ولكن ماذا أفعل؟ هل أستطيع أن أكذب؟! وصفت له ما يحدث دون زيادة أو نقصان. رأيتهم بعيني يقفون على كل الأبواب، ويفتشون كل من يحاول الخروج تفتيشا أدق من حساب الآخرة. يا حفيظ.. يرتعد المرء كأنه أمام الموت. لا يتركون جيبا أو ثنية جردوا بعض الناس من ملابسهم، ومزقوا بطانتها. والويل لمن يتباطأ أو يحتج.

جـــــــابر: والنساء أيضا!

يـاســـــــــر: لا يفرقون بين رجل وامرأة.

جـــــــابر: (عابثا يقلد ياسر) يا حفيظ

مـنـصـــــور: إذن يتوقعون أن يتسرب شئ هام من بغداد.

يـاســـــــــر: هام وخطير.. هناك رسالة تحوم راغبة في الخروج.

منـصــــور: أهو سيدنا الوزير؟

يـاســـــــــر: لم يعـد ذلك سرا.. عندمـا علم بأمر الحراس وإغلاق المدينة احمر وجهه، وتدافعت من فمه الكلمات. يا حفيظ.. الغضب عدو الحذر..

منـصـــــور: هذه المرة ستمضى الفتنة إلى نهايتها. قل لي.. أتعرف إلى أين سيبعث الوزير رسالته؟

جـــــــابر: تسأله وكأنه كاتم أسرار الدولة.

يـاســـــــــر: يا حفيظ.. ومن أين لي أن أعرف! كل ما أستطيع تأكيده هو أن الرسالة هامة وخطيرة للغاية. كاد الوزير أن يصاب بالفالج

عندما علم بإجراءات مولانا الخليفة. لاشك أنه يعطى أى شئ من أجل وصول هذه الرسالة..

جـــــابر: (ينتبه.. ويبدأ اهتمامه بما يحكى) ماذا قلت؟

يـاســــــر: (كأنه فوجئ) ماذا قلت!

جـــــابر: أعد.. أعد ما قلته

يـاســــــر: إنك تربكني.. قلت إن سيـدنا الوزير يعطى أى شئ من أجل وصول هذه الرسالة.

جـــــابر: (ساهما) يعطى أى شئ!

يـاســــــر: ذلك مؤكد! لم أر في حياتى وجهه يتلون مثل اليوم.

منصــــور: الحوادث تجرى بسرعة، ولا أحد يعلم ما يدبر حولنا.

جـــــابر: هل وعد سيدنا بمكافأة معينة؟

يـاســــــر: مكافأة! أتقول مكافأة! من يخـرج بهذه الرسالة يستطيع أن يتمنى على سيدنا الوزير ما يشاء.

جـــــابر: أيرفعه مرتبة لو طلب ذلك؟

يـاســــــر: يرفعه مراتب لا مرتبة واحدة.

جـــــابر: (والبريق يشتد في عينيه) يعطيه كيسا مليئا بالذهب؟

يـاســــــر: يعطيه أكياسا.. ولكن من يجرؤ على المخاطرة! يا حفيظ.. سيصبح حاملها جثة قبل أن يخطو خطوة واحدة خارج بغداد.

منصــــور: ولك جابر.. أراك تهتم بالأمر، ماذا يدور في ذهنك؟

جـــــابر: يدور شئ باهر يا منصور. ولكن انتظر.. لنر مرة أخرى كيف يتم التفتيش؟

يـاســــــر: لا تسأل عن التفتيش.. قلت لك أدق من حساب الآخرة ينبغى

أن تذهب وترى بنفسك يا حفيظ.. لا يتركون شيئا على الإطلاق رأيتهم بعينى يمزقون رغيف خبز نتفة، نتفة، خشية أن يكون فيه شئ مخبوء الثياب والأحذية.. وفوق ذلك الاستجوابات الدقيقة لا.. لا تأمل شيئا. الهواء نفسه لا يستطيع أن يمر من بين أيديهم.

جـــــابر: مع هذا قد تكون الحيلة أبرع من الهواء.

منصـــور: (لاهثا) جابر.. بماذا تفكر؟

جـــــابر: أفكر بأشياء جميلة يا منصور أشياء مثيرة يختلط فيها وهج الذهب وعطر زمرد وعلّو المقام (إلى ياسر) أمتأكد أنت أن سيدنا الوزير لن يرد طلبا لمن يحمل رسالته؟

يـاســـر: متأكد كوجودى يا حفيظ.. ربما كان مستعدا لأكثر من ذلك..

جـــــابر: سترى إذن.. (يهم بالانصراف).

منصـــور: (يزداد خوفه) لا أعرفك مجنونا إلى هذا الحد؟ أين تمضى؟

جـــــابر: سأبحث عن الإلهام يا منصور إنى بحاجة إليه الآن. ألم أقل لك.. قد نقبض بدلا من أن ندفع. إذا ظل رأسى ملتهبا كما هو الآن، فلن تضيع الفرصة.

منصـــور: لا تكن أحمق.. رغم كل شيء لا أريد أن يصيبك سوء إنك تتبع غواية مهلكة.

جـــــابر: كل شئ يتعلق بهذا اللهيب الذى اتقد به رأسى فجأة. اشملنى بدعواتك وأنت تصلى.. (ويمضى مغنيا وسط ذهول الآخرين) عندما أصبح للمسلمين خليفة سأسميك وزيرا للدولة. عندما أصبح للمسلمين خليفة.. سأسميك وزيرا.. (ويختفى بعيدا).

منصـــــور: أى جنون!

يـاســـــر: (تغلف وجهه البلاهة) أتعتقد أنه جاد؟

منصـــــور: إنك لا تعرف إذن.

يـاســـــر: يا حفيظ لو رأى الحراس لخاف من مجرد التفكير.

منصـــــور: (وهو ينصرف) اللهم أتم علينا خير النهاية.

يـاســـــر: (يتوقف لحظة شبه مذهول، ثم ينصرف بدوره) يا حفيظ.. (يخرج الاثنان حاملين معهما قطع الديكور).

الحكـواتـى: والمملوك جابر ذكى وذكاؤه وقاد. لمح الفرصة تواتى، فانقض عليها بلا تراخ يؤمن أن الفرصة قد لا تأتى مرتين وسر الفطنة ألا تحتاج الفرصة مرتين. وإن أسعفه الخيال، صارت الأمانى سهلة المنال. ماذا يعنيه ما يجرى فى بغداد ما دام هو الرابح فى الختام؟ ونزل إلى أبواب المدينة مرات وعاد.. وأعمل الفكر، ونقب عن حيلة أو سر. وجابر ذكى وذكاؤه وقاد. إذا أكد ذهنه فهو لا ريب بالغ مراده.. ولم يزل فى تفكير حتى وجد التدبير. عندئذ أشرق وجهه بالسرور، وطلب بالعجل الدخول إلى الوزير.. (خلال كلام الحكواتى توضع قطع ديكور تمثل ديوان الوزير، قاعة فاخرة الرياش والأثاث. يظهر فى الديوان الوزير ومعه أحد أصحابه) إنه عبد اللطيف أحد أمراء بغداد ذوى الغنى والنفوذ. الوزير تجاوز الأربعين، وهو بدين، وفى تقاطيع وجهه لؤم قديم ومزمن منقبض الأسارير، يمور فى عينيه حقد كظيم.. يبدو شديد القلق والانفعال يجلس لحظة، ثم ينهض بعصبية فيدور فى أرجاء القاعة وبحركة لا إرادية يمد شفته

السفلى فيتناول شعرة من شاربه يقضمها بأسنانه ثم يتف..
ومن حين لحين يخرج من جيب صدريته علبة نشوق، فيتناول
بين أصبعيه قليلا منها يدسه فى فتحتى أنفه، ويعطس.. نراه
يفعل ذلك مرتين على الأقل قبل أن يدخل عليه الحارس.
عبداللطيف هو الآخر لا يقل عصبية عن الوزير، لكنه يحاول
أن يتماسك في مقعده. (يدخل الحارس ويقترب من الوزير).

الحارس: سيدى.. على الباب واحد من مماليككم يطلب المثول بين أيديكم.

الوزير: ماذا يريد؟

الحارس: لم يفصح عن قصده، لكنه يلح فى مقابلتكم على انفراد..

الوزير: (بحركة ضجرة) دعه ينتظر.

الحارس: سمعا وطاعة. (ينسحب من الديوان)

الوزير: (وهو يدور قاضما شاربه بأسنانه) والآن..

عبد اللطيف: لنتعرف أنهم كسبوا نقطة. لم يتخيل أحد أن الخليفة سيتحرك بهذه السرعة.

الوزير: (بعنف) أما أنا فقد تخيلت. منذ فترة وتحركات أخيه عبدالله تزداد وتتسع. هو الدماغ الذى يدبر كل شئ.
اتصالات بكبار التجار. رسائل إلى الولايات. اجتماعات سرية بالخليفة. (يتحول صوته صياحا) كان ينبغى أن نتوقع ضربة مفاجئة على رؤوسنا.

عبداللطيف: هوت الضربة قبل أن نجد الفرصة لتوقعها.

الوزير: كانت لدينا كل الفرصة، ولو أصغيتم إلى لما فقدنا المبادرة.

عبد اللطيف: من كان يعلم أن الأحداث ستجرى بهذه السرعة؟

الـــوزيـــر: لا.. لن تأتي الآن لتقول لى من كان يعلم .. نبت الشعر على لسانى وأنا أستحثكم. كان واضحا أنهم يريدون تصفيتى وتشتيت الأمراء المؤيدين لى، وأنت على رأسهم. ذلك سبيلهم الوحيد كى ينفردوا بالحكم ويديروا الدفة على هواهم لا.. لا تقل لى من كان يعلم! الأوراق مكشوفة حتى قبل انفجار الأزمة الأولى، ولولا ترددكم لابتلعهم إبليس قبل أن يجدوا الوقت لتطويقنا.

عبداللطيف: ليس سهلا أن تطلب غزوا أجنبيا دون تقدير جيد للموقف. أنت تعرف ماذا يعنى الجيش الغازى عندما ينتصر إنه خراب طائش، قد تستحيل السيطرة عليه.

الـــوزيـــر: ولكن الجيش الغازى يأتى ليحمى مصالحنا، ويجهز لنا كرسى السلطة فماذا يهمنا بعد ذلك! بالتأكيد سيكون هناك خراب لن يدخل الجيش بالدفوف والغناء، ولن يوزع الورود والعطور. هذه حرب... سيقتلون ويخربون. طبعا لن يبقى من ذرية الخليفة حى، وستصبح قصوره خرائب كما لن يوفروا المدينة. هى الأخرى سينهبونها على أى حال هذه ضريبة الانتصار أما نحن فماذا يخيفنا؟ ليدعَموا لنا السلطة. فهل نطلب أفضل من ذلك!

عبد اللطيف: المهم.. كان لابد من دراسة الظروف المحيطة بنا.

الـــوزيـــر: ليست الظروف المحيطة بنا لغزا مستعصيا. الصراع واضح الأبعاد. وأمامنا اختياران لا ثالث لهما. إما أن تقبل تصفيتنا، أو نطلب عونا خارجيا يحسم لنا الصراع.

عبداللطيف: أنت نفسك تمهلت، ووافقت على أن الأمر يحتاج إلى استعداد.

الــــوزيـــــر: بالتأكيد.. كان ضروريا أن نضمن ولاء عـدد من القواد، وأن نتخذ بعض الترتيبات.. كيف نغريهم بالغزو إن لم نضمن لهم النصر هنا!

عبد اللطيف: على كل حـال.. لا فائدة الآن من تبادلنا اللوم لقد حزمنا الرأى فى النهاية. وأجمعنا على أن تبعث الرسالة.

الــــوزيـــــر: (يتناول نشوقا، ويعطس) نعم.. حزمنا الرأى عندما أفلتت من أيدينا المبادرة. (يعطس مرات متلاحقة... ويسود قليل من الصمت المتوتر).

عبـداللطيف: قل لى.. هل تعتقد أنهم اكتشفوا خطتنا أم هى مجرد احتياطات وقائية؟

الــــوزيـــــر: من المؤكد أنهم يرتابون. عند عبـدالله جـهـاز من العمـلاء والمخبرين لا يستهان به. ألم تلاحظ أن الفرقة التى استخدموها لإغلاق بغداد هى فرقة القصر التى يشرف عليها عبدالله بنفسه. أى .. الفرقة التى ليس لنا فيها أعوان ربما لا يعرفون الخطة بتفاصيلها، ولكن من المؤكد أنهم يرتابون، ويحتاطون لكل احتمال.

عبـداللطيف: إذا كانوا يعرفون حقا، فسيعجلون إذن بالصدام، وقد تكون تلك خطوتهم الأولى.

الــــوزيـــــر: الصدام! لا.. (ينشق ويعطس) لن يقامروا الآن. عبد الله دقيق فى الحساب. وهو يعرف أن النتائج غير مضمونة (لحظة) خطواتهم التالية مكشوفة. سيحاولون قبل كل شئ الاتصال بحكام الولايات، وضمان الإمدادات. سيقدمون كل التنازلات

التى يطلبها الولاة. سيمنحونهم الاستقلال إذا لزم الأمر مقابل أن يضمنوا وصول القوات. أما قبل ذلك، فلن يقامروا بالصدام. سيكون أمامنا فترة من الترقب، والهدوء المحتقن.

عبد اللطيف: ومع ذلك من المفيد أن نتخذ بعض الاحتياطات. هناك دائما مفاجآت غير محسوبة. ومن يدرى قد تستغل العامة هذه الظروف، فتشعل نار الشغب. حينئذ لا أحد يعرف كيف يتحول الموقف.

الــوزيــر: (باحتقار) العامة! ومن يبالى بالعامة؟ لا.. هؤلاء لا يثيرون أية مخاوف. يكفى أن تلوح لهم بالعصا حتى يمحوا، وتبتلعه من ظلمات بيوتهم.

عبداللطيف: وخطيب الجامع! أى موقف سيتخذ فى رأيك! إذا شاء يستطيع أن يهيج العامة، وأن يلعب دورا مؤثرا لا أكتمك.. أنا لست شديد الثقة به.

الــوزيــر: لا تخف.. أعرف خطيب الجامع أكثر منكم. إنه دقيق النظر، وبعيد فى حساباته. لا يورط نفسه، ولا يمشى خطوة إلا إذا كان واثقا أن خط الرجعة مأمون. ستكون خطبة الجمعة أدق من إبرة الميزان. سيختار كل كلمة بحيث لا يوحى بأى انحياز. (تعبير ازدراء على وجهه) لا .. كل هذه المسائل ثانوية، ولا ينبغى أن نضيع وقتنا فيها أمامنا فترة قصيرة من الهدوء. لكننا فى سباق مع الوقت لو نجحوا فى اتصالاتهم قبلنا، فلن تكون السيوف رحيمة. سيقطعون رؤوسنا واحدا بعد الآخر. وسيعلقونها فى ساحات بغداد كمشاعل النصر، أتسمع! رأسى، رأسك، ورؤوس

الآخرين.. ستعلق فى الساحات، والدم يقطر منها على وجوه الراقصين حولها. إننا فى سباق مع الوقت. المبادر فى أيديهم هذا هو وضعنا.

عبد اللطيف: وضع دقيق تحفه المخاطر. كل شئ مرهون بالرسالة. ولكن

الــــوزيــــر: (مقاطعا بحدة) دعنا من هذه الـ «لكن» إذا لم تخرج الرسالة من بغداد فقل علينا جميعا السلام. قضية حياة أو موت. ينبغى أن تنفذ الخطة مهما كان الثمن. لم يعد مهما. سنقبل كل المخاطر، كى تخرج الرسالة من بغداد.

عبداللطيف: ألديك اقتراح معين؟

الــــوزيــــر: لنعقد اجتماعا هذا المساء. لا مجال للاختيار. إما أن ننفذ الخطة أو ننتهى. مهما كان القرار خطيرا يجب اتخاذه.

عبداللطيف: (بعد لحظة) فكرة معقولة. ربما كان لدى الآخرين اقتراحات نافعة.

الــــوزيــــر: لابد أن نجد مخرجا.

عبداللطيف: هل ندعو الجميع؟ (يدخل الحارس)

الــــوزيــــر: نعم الجميع.. ولا تنس أن جواسيس عبد الله ينتشرون حولنا كالذباب.. (لحظة)هـ.. كسبوا نقطة. إلا أنهم لم يكسبوا الجولة، ولن يكسبوها ما دمت حيا.

الحــــــارس: (مرتبكا وخائفا) سيدى.. المملوك يلح كثيرا فى الدخول عليك يزعم أن لديه أمرا هاما لا يقبل التأجيل.

الــــوزيــــر: (غاضبا) يلح.. يلح.. ماذا يريد هذا الغراب؟

الحــــــارس: لا أعلم يا سيدى.

عبداللطيف: طيب.. سأمضى الآن.

الوزير: لا تنسى أنهم يشددون الرقابة أيها الأمير.

عبداللطيف: كن مطمئنا.

الوزير: (بعد فترة) دع هذا الغراب يدخل. سأجعله عبرة إن كان يدخل على لشأن تافه.

الحارس: (وهو يتراجع بانحناء) سمعا وطاعة (عندما يصل إلى الباب.. ينادى).. ليدخل مملوك سيدنا الوزير.

(يدخل جابر.. قسمات وجهه يتراقص عليها الفرح. وفى عينيه تتوهج النظرة الذكية يبالغ فى الانحناء ويزيد فى مظاهر الاحترام، حتى ينكشف النفاق واضحا).

جابر: (لا يزال ينحنى) السلام على مولاى، وولى نعمتى وزير بغداد المعظم.

الوزير: (بإهمال) ألست المملوك الطويل اللسان جابر!

جابر: أطال الله عمر سيدنا الوزير وقصر عمر أعدائه، هو أنا مملوككم جابر.

الوزير: ماذا تريد؟

جابر: أن تكون أيام مولاى عامرة بالهناء، ومساعيه مقرونة بالنجاح.

الوزير: (يتناول نشوقه) هيا.. ولا تطل على الثرثرة. ويلك إن كنت تدخل على لأمر تافه.

جابر: (فيما يبدأ الوزير يعطس) حاشا يا مولاى.. ورب الكعبة، حين علمت أن سيدنا الوزير مكدر البال، تكدر بالى، وضاقت بى الأرض حتى صارت كالكشتبان.

الــــوزيـــر: (يبدأ يغضب ويزوى ما بين حاجبيه) أجئت تبثنى العواطف! إن كان لديك ما تخبرنى به، فقله وأوجز. لا يدخل على واحد منكم إلا بأخبار السوء، وخلقه يتعوذ بها اليوم،

جــــــابر: لاعشت إن حملت لسيدنا الوزير مايسوءه. جئت ألبى له حاجة إن كان هناك ما يحتاجه.

الــــوزيـــر: (يدقق النظر) تلبى لى حاجة! ومتى كان فيكم خير. ما إن ألوح لواحد بمهمة حتى يبدأ بالارتجاف كأنه مقبل على الموت.

جــــــابر: ها أنذا قدام مولاى، حياتى رهن إشارته، وفى المواقف العسيرة لانعدم حيلة.

الــــوزيـــر: أعرفك طويل اللسان.. فأفصح عما فى نفسك حالا. جئت تتملقنى أم تخبئ شيئا وراء ما تقول؟

جــــــابر: عندما يمتحننى سيدى يعرف إن كان تملقا ما أقول.

الــــوزيـــر: هل تعرف المهمة التى أبحث لها عن رجل، يحملها ويخاطر من أجلها؟

جــــــابر: لا ينبغى أن أدس أنفى فيما لا يعنينى. ولكن حين علمت أن سيدى مكدر البال، انشغل فكرى، وبدأت أسأل عن السبب، حلمت أنا العبد المملوك أن أعمل شيئا يبدد كدره، ويثيبه أربه.. وبعد بحث وطول سؤال، عرفت أن ما يشغل سيدنا هو رسالة يريد أن تخرج سالمة من بغداد.

الــــوزيـــر: أصبح أمرنا مشاعا فى كل المدينة.

جــــــابر: ليغفر لى سيدى هذا الفضول. ما قصدت أن أدس.

الــــوزيـــر: (مقاطعا.. وقد أثير اهتمامه) لا عليك أيها المملوك فات أوان

الحرص. ما يهمنا الآن أن نجد رجلا يحمل المهمة، ولو اجتاز في سبيلها الأهوال.

جـــــابر: قدامك يا سيدى..

الـــوزيـــر: (مندهشا.. يتناول النشوق وبحركة آلية يدس منه فى أنفه) أنت! وماذا دبرت؟ أرأيت الحراس على أبواب المدينة؟

جـــــابر: أى والله رأيتهم يا مولاى، أعوذ بالله.. لا نجاة من أيديهم حتى ولو لبس المرء قبعة الخفاء. يفتشون الداخل والخارج كأنه فى يوم الحساب. (يتمهل.. يخفض صوته، ويقرب وجهه من الوزير) ومع هذا.. فسنسخر منهم ونجعلهم.
أضحوكة بغداد لأعوام وأجيال..

الـــوزيـــر: (منفعلا.. يعطس) نسخر منهم.. ماذا تقول ايها المملوك؟ إن كنت تعبث فسأصنع من جلدك طبلا ودربكة. هيا.. أخبرنى كيف تريد أن تسخر منهم. هل وجدت تدبيرا نافعا؟

جـــــابر: التدبير جاهز يا مولاى.

الـــوزيـــر: (لشدة انفعاله، يتناول نشوقه أيضا..) هات ما لديك بالعجل. إن كان ما تقوله صحيحا.

جـــــابر: (بابتسامة خبيثة) إن كان ما أقوله صحيحا؟

الـــوزيـــر: فسأجزل لك العطاء.

جـــــابر: لا أبتغى إلا مرضاة سيدى، إلا أنى أجد نفسى ضعيفا أمام كرمه.

الـــوزيـــر: لا تساوم.. سأعطيك ما تريد.

جـــــابر: أيمن على عبده بمركز يرفعه من ضعته؟

الـــــوزيــــر: أعطيك ما تريد لو بلغت رسالتى.

جـــــــابـر: ويكرمنى فيزوجنى زمرد خادمة سيدتى شمس النهار؟

الـــــوزيــــر: (نافد الصبر) هى لك.. وفوقها مال كثير. ولكن ارنا اولا تدبيرك.

جـــــــابـر: (ينحنى مقتربا من الوزير.. لهجة بطيئة مع تشديد على الكلمات) إنى اهبك راسى يا مولاى.

الـــــوزيــــر: تهبنى رأسك؟ وماذا تريدنى أن أفعل برأسك؟ مرة آخرى احذرك ايها المملوك. إن كنت تعبث فساجعل من جلدك طبلا ودربكة.

جـــــــابـر: لو لم يكن راسى نافعا ما قدمته لمولاى..

الـــــوزيــــر: وما نفعه لى؟

جـــــــابـر: راقبت الحراس ساعات طويلة يا مولاى. رايتهم كيف يفتشون، وكيف تتغلغل اصابعهم كالثعابين فى كل شئ يمزقون الثياب. يقطعون الاحذية يؤلمون الناس وهم يغرسون أظافرهم فى كل بقطعة من اجسادهم. البطون والظهور.. واحيانا ما بين الافخاد.. ولكن احدا منهم لم يخطر بباله أن يفتش تحت شعر الرأس.

الـــــوزيــــر: (ببلاهة) وماذا سيجدون تحت شعر الرأس سوى القمل والبراغيت؟

جـــــــابـر: قد يجدون الرسلة التى يفتشون عنها يا مولاى.

الـــــوزيــــر: (مندهشا.. تتوقف يده التى تبحث عن بعض النشوق..) الرسالة! (لحظة تلتقى فيها العيون وهى تبرق) أتعنى!

جـــــابـر: نعم يا مولاى.. (يلتفت حوله بحذر) أرجو ألا تكون حولنا آذان فضولية.

الــوزيــر: من يجرؤ على الإقتراب من الديوان.

جــــابـر: إذن إليكم التدبير.. تنادى الحلاّق، فيحلق شعرى، وعندما يصبح جلد الرأس ناعماً كخد جارية جميلة، يكتب سيدنا الوزير رسالته عليه. ثم ننتظر حتى ينمو الشعر ويطول، فأخرج من بغداد بسلام.

(يلهث الوزير منفعلا.. يضع النشوق فى أنفه.. ولشدة انفعاله لا يعطس.. فيصبح وجهه كالقناع المدعوك. تثور همهمة، وتعليقات بين الزبائن..)

زبـــــون: يحرز دينك.

زبـــــون٢: من أين وجدها؟

زبـــــون٣: الله يحميه.. عينى عليه.. ما هذه الفطنة!

زبـــــون١: أى هيك تكون الرجال، مثله يستطيع أن يلعب بدولة.

زبـــــون٢: ابن زمانه.. قلت لكم منذ رأيته أول مرة، هذا ابن زمانه.

الــوزيــر: (يحاول التخلص من انفعاله) انتظر.. انتظر.. نحلق شعر رأسك أولاً..

جـــــابـر: أى نعم.

الــوزيــر: ثم نكتب الرسالة عليه.

جـــــابـر: أى نعم.

الــوزيــر: وننتظر حتى يكتسى الرأس مرة أخرى بالشعر، وتختفى تحت سواده الكلمات.

جـــابر: أي نعم.. (يحلق الوزير فيه بعينين مندهشتين، وكأن ذهولاً ألمّ به. فجأة يعطس بشدة)

زبـــون ٣ يبدو الوزير وكأنه لا يصدق.

زبـــون ٢ فكرة تساوى كنزاً.

الـــوزيــر: (مقتربا من جابر. وفى وجهه خلف الذهول حنان) والله وجدتها أيها المملوك.

جـــابر: (بنظرة ذات معنى) لعل مولاى لايندم على وعوده، ما دام قد أعجبه تدبير مملوكه.

الـــوزيــر: (عيناه سارحتان، يخفق فيهما فرح وتشف) لا تخف.. الوعود محفوظة. (بعد أن يلقى بإهمال هذه العبارة. يدور فى أرجاء القاعة، وكأنه يتابع عينيه السارحتين).

زبـــون ٣ منذ قليل كان يبدو كفأر فى مصيدة.

زبـــون ٢ بعد تدبير جابر تغير الحال.

الـــوزيــر: كسبوا نقطة.. ربما.. ولكن ها أنذا أكسب الجولة. تسلمنا المبادرة منهم، وإنى أمسك المنتصر وأخاه فى قبضتى.. وسأعصرهما.. (يشد قبضته) حتى يصبحا عجينا فاسدا. ستكون المفاجأة كبيرة هذا المساء. لكن أصبح الحذر ضروريا لنتابع الخطة، ولنتحسس جيدا موطئ أقدامنا

جـــابر: (متعجلا) هل يأمر مولاى بالبدء. كلما أسرعنا كان ذلك أفضل.

الـــوزيــر: (ينتبه من شروده) حقا.. ينبغى ألا نضيع دقيقة واحدة. إننا فى سباق مع الوقت.. (يقف قبالته. وينظر إليه بإعجاب

وفرح، ثم يمد يده إلى رأسه، ويعبث فى شعره بحركة غريبة)
سيكون لتدبيرك شأن فى المستقبل أيها المملوك جابر.

جـــــابر: ما يهمنى هو أن يكون مولاى راضياً، وأن يشملنى عطفه وكرمه.

الـــوزيـــر: (باسماً) خلف جميل المقال أنت لجوج. كأنك تشك فى عهودى!

جـــــابر: معاذ الله..

الـــوزيـــر: قلت لك.. عندما تبلغ الرسالة نعطيك من المراكز ما تريد. وفى بغداد ستنتظرك المرأة التى تشتهى، وكوم من المال.

جـــــابر: أمد الله فى عمر مولاى، وجعل أيامه موصولة بالظفر والمسرة..

الـــوزيـــر: والآن.. إلينا بالحلاق..

جـــــابر: أجل.. إلينا بالحلاّق. وليحمل من الأمواس أحدهما. (يخفت الضوء فى القاعة، بينما يشتد على الكرسى التى يجلس عليها الحكواتى. سيتم المنظر على الشكل تمثيل إيمانى وطقسى. فالحركات ذات إيقاع بطئ، يزيدها صمت الممثلين ثقلاً، حتى لتصبح شبيهة بطقوس غامضة، وسحرية. تمتزج الحركات بكلام الحكواتى، وتشكل معه ما يشبه اللحن الحزين).

الحكـواتـى: وطلب الوزير أن يحضر الحلاق فى الحال. وأن يحمل معه من الأمواس أشدها بريقا، وأمضاها حدا. وعلى الفور جاء الحلاق إلى الديوان يتبعه ثلاثة من الغلمان.
(يدخل الحلاق ووراءه الغلمان الثلاثة. يسيرون بخطوات موزونة، بطيئة، بالغة التأدب. يلبسون ثيابا ناصعة البياض، ويحملون معدات الحلاقة. أحد الغلمان يحمل كرسيا عاليا

ومسندا للقدمين. والثانى يحمل حقيبة فيها عدة الحلاقة وبعض المناشف. أما الثالث ففى يديه دورق وطشت من الفضة الخالصة يتقدم الجميع نحو منتصف الديوان. وبين والفينة والفينة لا ينسون أن ينحنوا باتساق، وبشكل احتفالى. عندما يصلون إلى حيث يقف الوزير وجابر، يبدأون الإعداد للحلاقة. ويوضع الكراسى فى مواجهة الجمهور وأمامه المسند. الجو ثقيل بطابعه الاحتفالى...)

الحكواتى: وقاد الوزير مملوكه جابر حتى أجلسه على الكرسى العالى، فاستقام ظهره فوقه، وامتلأ بالزهور. وكانت عيناه تبرقان، وتدغدغ مخليته الأحلام. فتح الحلاق حقيبته. أخرج موسا له بريق، ومعه مسنه الجلدى وراح يسن الموس.. اشحذ موسك أيها الحلاق.. اشحذه حتى يصبح كالومض البراق.. الرأس الذى ستجز شعره له فى هذا الزمن المضطرب دوره اضغط بيدك جيدا. حركها برشاقة واضغطها. الرأس الذى ستجز شعره له فى هذا الزمن المضطرب دوره. فاصقل حد الموس حتى يصبح كالومض البراق.. وكان الصبية يهيئون كل ما تحتاجه حلاقة يشرف عليها الوزير بنفسه. ولما صار الموس ذا حد يفرى الحديد، تناول الحلاق برقة رأس المملوك جابر. فارتخت عضلات رقبته، واستسلم هادئا بينما سرت فى العينين نشوة كالحلم..

الوزير: (منفعلا) هذا الرأس له قدره عندى. أريدك بارعا كما عرفتك. احلق الشعر من الجذور. من أعمق منابته.. أريد أن يصبح

رأس مملوكى جابر أكثر نعومة من خدود العذارى.

الحـــــلاق: (منحنيا فى طقسية) سمعا وطاعة.

الصـبـيـان: (وهم يصطفون وراء الحلاق متهيئين لكل خدمة.. بصوت غنائى رقيق خافت أثناء الحلاقة). يا معلمنا احلق ونعم الحلاقة. خل الرأس يصير مثل خدود العذارى يا معلم الحلاقين.. بفن ومهارة.. خل الرأس يصير مثل الخدود العذارى.

الحكـواتـى: (على الصوت الغناء الرقيق الخافت) وأخذ الحلاق يجز شعر المملوك جابر. ولخفة يده ومضاء حد موسه، لم يكن جابر يشعر إلا ببرودة لطيفة تشبه الأنسام، وترتخى لها الأجفان. وتساقطت خصلات الشعر.. خصلة بعد خصلة تساقطت.. وبان جلد الرأس. يد الحلاق ما هرة رشيقة، تتحرك فيلتمع الجلد.

الــوزيــر: نعم يا حلاق.. نعم ما استطعت.

الحـــــلاق: (منحنيا للوزير) سمعا وطاعة..

الصـبـيـان: خل الرأس يصير مثل خدود العذارى..

الحكـواتـى: وشعر جابر برأسه يعرى. أحس بالبزودة، ولكنه لم يرتعش، ولم تضطرب عيناه، بل ظلّت النشوة تختلج فيهما. والموس يروح ويجئ، حتى صار لرأسه لمعان المرايا: (تسقط حزمة ضوء على رأس جابر، فينبثق منه لمعان).

الحـــــلاق: (يعطر الرأس، ويمسح عليه فتنزلق أصابعه..) نعيماً.. (ثم يلتفت إلى الوزير) نعيما لمولانا ومملوكه.

الصـبـيـان: نعيماً لمولانا ومملوكه.

الــــوزيـــــر: (يتحسس هو الآخر رأس المملوك جابر، فتنثيره نعومته) عظيم.. عظيم.. أصبحت تغار من رأسك خدود أجمل العذارى (ثم يلتفت إلى الحلاق وصبيته) انصرفوا الآن (بعد أن يجمع الحلاق وصبيته أدواتهم ينسحبون وهم يتمتمون: نعيما لمولانا ومملوكه، مكررين نفس الطريقة الطقسية التى دخلوا بها).

جــــــــابر: أرتعش من السعادة إذ يسبغ مولاى على رأسى الوضيع هذا الاهتمام.

الــــوزيـــــر: رأسك يساوى مملكة يا جابر..

جــــــــابر: هو لك يا مولاى (لحظة حتى يخرج الحلاق من الباب). والآن.. ابحث يامولاى عن ريشة وحبر لا يمحى إلا بالحفر.

الــــوزيـــــر: (منفعلا) هذا ما سنفعله بلا إبطاء.

(يبحث الوزير عن ريشته والدواة بينما يرفع جابر لأول مرة يده إلى رأسه فيلا مسها، ويبتسم ابتسامة طويلة تغص بالمعانى يأتى الوزير ومعه الدواة والريشة).

جــــــــابر: بين يديك يامولاى..

(يركع جابر بحركة بطيئة ووجهه للجمهور، بحيث تبدو واضحة كل الانفعالات التى يمكن أن تعبره، يأتى الوزير بكرسى منخفض، ويجلس خلف جابر واضعا الدواة قربه، ويمسح مرة أخرى على الرأس الذى يلمع تحت الأضواء ثم يغطى ريشته بالدواة، ويبدأ فى الكتابة عندما يضع الريشه على رأس جابر تتقلص ملامحه تحت تأثير الوخزة، لكنه يتحمل، وتخفق عيناه).

جـــــابر: (ووجهه ينقلص)آه ليت مولاى يختار من الكلمات أليتها وأكثرها إيجازا.

الـــوزيـــر: لا تخف. سأوجز فى الكتابة ما استطعت. (من حين لحين يتوقف الوزير لحظة، يفكر فيها باحثا عن كلمة، ثم يعود إلى الكتابة)

جـــــابر: (متقلصا من الألم) هذه الكلمة أحسها تنغرز فى دماغى. ليت مولاى يجد كلمة أخرى.

الـــوزيـــر: انتهيت تقريبا. (ينهى الجملة التى يكتبها. يضع الريشة، ويغلق الدواة، لكنه يتوقف فجأة، ويسهم مفكرا)

جـــــابر: بعد أن فرغ مولاى من كتابة رسالته، هل يسمح لى بالنهوض؟

الـــوزيـــر: (ساهما) لا.. لا.. انتظر قليلا. (ينهض ويذرع الديوان جيئة وذهابا. يتناول نشوقا ويعطس).

الحكـواتـى: وفكر الوزير. كانت هناك حاشية ناقصة فيما يبدو. وتردد.. عطس وتردد. وبعد أن اجتاز الديوان مرارا فى غدو ورواح، التمعت عيناه، وعاد يجلس على كرسيه.

الـــوزيـــر: انتظر.. انتظر.. هى جملة أخيرة وننتهى. (يكتب الوزير جملة جديدة، وينقبض وجهه من الألم)

الـــوزيـــر: (يربت على كتفه بابتسامة) والآن.. تستطيع أن تنهض.

جـــــابر: (وهو ينهض) هل يشرفنى مولاى الآن بمعرفة الجهة التى سأحمل إليها رسالته؟

الـــوزيـــر: ليس الآن.. ستعرف فيما بعد. المهم أن ينبت شعرك بسرعة، وأن يكسو جلد رأسك كطاقية سوداء.

جـــــــابر: وإلى أن يحين ذلك الوقت؟

الـــــوزيـــــر: إلى أن يحين ذلك الوقت.. ستقيم فى غرفة منعزلة ومظلمة حتى لا يراك أحد، ولا يقرأ ما هو مخطوط على رأسك إنس ولا جن.

جـــــــابر: من أجل مولاى مستعد لكل شئ

الـــــوزيـــــر: إذن تضع على رأسك كوفية. وتستعد للمكوث فى غرفة مظلمة. هيا معى. (يمسكه الوزير بيده، ويخرجان)

الحـكـواتـــى: وهنا نستأذن المستمعين الأكارم باستراحة قصيرة نشرب فيها فنجانا من الشاى. طبعا من يشاء الخروج لقضاء حاجة يستطيع الخروج، ومن يشاء البقاء يمكنه أن يبقى (تنفر من بين الزبائن تعليقات وردود فعل سريعة)

زبـــــــون: لا.. بالله عليك أكمل.

زبـــــــون ٣: نريد أن نعرف بقية الحكاية.

زبـــــــون ١: دائما تقطعها فى لحظة حرجة.

زبـــــــون ٢: هات شاى للعم مؤنس.

زبـــــــون ١: تستطيع أن تشرب الشاى، وأنت تقرأ.

الحـكـواتـــى: لا تخافوا.. سنكمل القصة.. دعونى أسترد أنفاسى قليلا.

زبـــــــون ٣: اتركوه على راحته. لن يغير العم مؤنس عاداته.

زبـــــــون ٢: هات نارة يا أبو محمد.

الخـــــــادم: حاضر.

(يعود المقهى إلى التراخى والفوضى. كلام.. وتعليقات.. وصياح على أبى محمد الذى تنشط حركته الآن. بعض الزبائن

يستغل الاستراحة للخروج قليلا من المقهى..)

زبـــــون ١: أريد أن أعرف إلام سينتهى هذا الولد.

زبـــــون ٢: يمين بالله أحببته.

زبـــــون ٣: يفهم الحياة كأنه جربها أجيالا.

زبـــــون ٢: ويعرف كيف يقتنصها أيضا.

زبـــــون ٣: الحـياة كـالمرأة لا تعطى جسدها إلا لمن يعرف كيف يأخذ جسدها. (الخادم يحمل صينية عليها عدد من كؤوس الشاى.. يضع كـوبا أمـام الحكواتى، ويوزع الباقى. ثم يعـود بعد قليل حاملا موقد الفحم ليوزع الجمر على النراجيل).

زبـــــون ١: أنا أقول إن شأنا كبيرا ينتظر هذا المملوك.

زبـــــون ٢: بمثل هذه الفطنة، والجرأة يستطيع أن يتسلق عرش السلطنة.

زبـــــون ٤: لا تزيدوها. ما هو لا ولد ذكى ونهاز للفرص.

زبـــــون ٣: نهـاز للفـرص.. ليكن هذا هو الطريق للوصـول إلى أعلى المراتب.

زبـــــون ٤: وأحيانا إلى أسفل المراتب إذا كنت لا تعرف

زبـــــون ٢: نعرف ونرى كيف يسير دولاب الدنيا!

زبـــــون ١: ولد بهذه العياقة، يخرج من ألف مصيدة بسلام.. بالله ياعم مؤنس عجل.. أنا أقول إن شأنا كبيرا ينتظر هذا المملوك، فما رأيك؟

الحـكـواتـى: اصبروا.. اصبروا..
هى دقائق وتعرفون بقية الحكاية..

زبـــــون ١: طيب.. العم مؤنس لا يريد أن يجيب. ولكن هل تراهن على ما

أقول؟

زبـــون ٢: وأنا أنزل معك بالرهان.

زبـــون ٤: لا أراهن.. قد يصح ما تقول، إلا أن المنطق السليم هو ألا يصح ما تقول.

زبـــون ١: هذه فذلكة. نحن نعرف الدنيا، ونرى كيف يسير دولابها.

زبـــون ٢: ستأتى بقية القصة على كل حال.

زبـــون ١: هات شاى يا محمد

زبـــون ٣: مادام العم مؤنس يطلب استراحة افتح لنا الراديو..

زبـــون ٢: أى.. افتح هذا الراديو يا أبو محمد.. (أبو محمد يفتح الراديو..)

صوت المذيع: وفى الساعة السابعة من مساء اليوم عقد اجتماع هام بالقصر الجمهورى حضره السادة الوزراء.

زبـــون ١: غير المحطة يا أبو محمد..

زبـــون ٤: دعونا نسمع نشرة الأخبار.

زبـــون ١: بلا أخبار ووجع قلب.

زبـــون ٢: ابحث عن أغنية تبل الريق.

زبـــون ٣: أى أسمعنا غنوة حلوة..

(يد محمد تحرك المؤشر بحثا عن أغنية.. ينبثق صوت أم كلثوم فى أغنية الحب كده..)

أصوات زبائن: أيوه.. يا سلام! (يستقر المؤشر على المحطة، ويتوضح غناء أم كلثوم، وهى تكرر الحب كده. العم مؤنس يرقب الزبائن، ويهز رأسه بينما يشرب الشاى بهدوء تستمر الأغنية بضع دقائق هى تقريبا فترة الاستراحة. ومن حين لحين نسمع آهة يا سلام).

بعد الاستراحة

(يخفت صوت الغناء، ويصبح خلفية..)

زبـــون ٢: أنهى العم مونس فنجان الشاى.

زبـــون ١: لنسمع إذن بقية الحكاية.

زبـــون ٣: لا بأس بهـذه الحكايات.. ولكن بينى وبينك أين هى من سيـرة الظاهر! تلك حكاية تملأ الدماغ فعلا.

زبـــون ١: والله صحيح.

زبـــون ٢: حلفتك بالله يا عم مؤنس لماذا تتدلل علينا بسيرة الظاهر؟

الحـكـواتـى: العم مـونس لا يعـرف الدلال، ولكنه يعـرف جـيـدا ترتيب الحكايات فى كتابه.

زبـــون ٢: تبالغ فى الحرص على الترتيب وكأنه تنزيل حكيم.

الحـكـواتـى: لن نفـهم أيام الظاهر، إلا إذا فـهـمنا مـا تـقـدمـهـا من أوضـاع وأزمان. لا تنسوا أن التاريخ متسلسل.

زبـــون ٢: ولكن متى تنتهى حكايات ما قبل الظاهر؟

الحـكـواتـى: كل شئ وله أو انه.

زبـــون ٢: أتكون حكاية اليوم هى الأخيرة؟

الحـكـواتـى: من يدرى!.. (يفتح كتابه مبسملا بصوت خافت)

زبـــون ٢: لا فائدة.. كتوم وعنيد أيضا.

زبـــون ٣: يا أبو محمد.. ساعدنا على العم مؤنس، كى يبدأ السيرة غدا.

الخـــــادم: وهل أستطيع! والله مشتاق لسماعها أكثر منكم.

الحـكـواتـى: ونعود إلى الصلاة على النبى. ونتابع مجرى قصتنا.

أصـــــوات: ألف الصـلاة والسـلام عليـه.. سنرى الآن نهـاية جـابر. أقـفل

الراديو. (تهدأ الضجة، ويختفى صوت الراديو.. يرين الصمت والانتظار).

الحكواتي: فقال الوزير لمملوكه جابر. هيا وبعد أن ستر رأسه بكوفية سوداء، وضعه فى غرفة مظلمة على بابها حارس ترتعد لمرآه الفرائص. متيبس على الباب لا يسمح لأحد بالاقتراب. وكان لابد من الانتظار حتى ينمو الشعر، ويخفى سر الوزير.. والتوتر فى ازدياد. ترقب فى قصر الوزير. وحركة ومشاورات فى قصر خليفة بغداد. وكلعبة الشطرنج، كل يحك رأسه، ويفكر كيف يحرك أحصنته وجنوده. اللاعبان خليفة بغداد ووزيرها، ورقعة الشطرنج بغداد وعامتها. (أثناء كلام الحكواتي يدخل الممثلان اللذان قاما بدورى الوزير والأمير عبد اللطيف.. هما الآن يمثلان دورى الخليفة المنتصر بالله وأخيه عبد الله. يضعان ما يحملان من قطع ديكور بسيطة تمثل ديوان الخليفة، وهو شبيه جدا بديوان الوزير. يتخذان مكانيهما، وينتظران سكوت الحكواتي.. بعد لحظات).

عبد الله: أصبحت اللحظة مناسبة للخطوة الحاسمة.

الخليفة: أو اثق من النتائج؟

عبد الله: لو لم أكن واثقا من النتائج ما كنت لأقول.. أصبحت اللحظة مناسبة.

الخليفة: لا تنسى أن له أعوانا مخلصين داخل قيادات الحرس.

عبد الله: (يلوح برسائل فى يده) وهل أجهل ذلك. ما قيمة هؤلاء الأعوان بعد ان أثمرت مراسلاتنا.

الخليفة: (لا يخفى ضيقه) مراسلاتنا! بل قل تنازلاتنا التى ستجردنا تقريباً من معظم ولاياتنا.

عبد الله: (باحتداد) لن نعود لنناقش هذه النقطة. أحيانا من الضرورى أن نتنازل عن شئ كى نكسب شيئا أهم. دون تنازلات ما كان ممكنا أن نقنع بعض الولاة بإرسال إمداداتهم. وبلا امدادات لن يمكون سهلاً أن ننتصر عليه. قل لى.. أتريد أن ننفض أيدينا، ونترك الوزير يسرح ويمرح فى بغداد. يدعم قواه ويعزز مراكزه، وحين تواتيه الفرصة ينقض علينا ويصفينا؟

الخليفة: (يختبط وجهه) لا تستفزنى. أنت تعرف أنى مصر هذه المرة على ألا نتراجع. ما عدت أحتمل أن يكون فى بغداد خليفتان وقيادتان. سيصيبنى الشلل لو اضطررت بعد كل هذا إلى استقباله فى ديوانى ورؤية وجهه المريب.

عبد الله: إذن لماذا نتردد؟ المناورة أساس الحكم. نوقف بعض العداوات نتفرغ لعداوة أهم. وبعدها سيكون لكل حادث حديث. إننا نمسك بالخيط. قطعنا عليه كل فرصة للاتصال بالخا رج، وأقنعنا ولاة أقوياء بالانضمام إلينا. الآن لدينا قوات تنتظر إشارة، وأعتقد أنها اللحظة المناسبة كى تصدر لها الأوامر بالتحرك إلى بغداد.

الخليفة: ومع هذا أريد أن تكون حساباتنا دقيقة. وضعنا لا يحمل خطأ أو هفوة.

عبد الله: تعرفنى بارعا فى الحساب. إنى أؤكد لك أن الفرصة حانت كى نتخلص منهم، ونعيد للسلطة حزمها ومركزها.

الخليفة: أتعلم! مجئ هؤلاء الولاة الطامعين على رأس قوات كبيرة،

يقلقني رغم ضرورته. أخشى أن نخلص من الشر لنقع في شر آخر. لو أو قظ النصر شراهتهم، فسنواجه مساومة غالية الثمن.

عـبـد الله: اترك لي هذا الأمر. بعد أن ننتهي من الوزير، ونعيد لقوات بغداد وحدتها، سيكون سهلا أن نواجه احتمالات طارئة كهذه. ولاتنس أني أعرف التناقضات القائمة بين الولاة أنفسهم. من اليسير دائما أن نشعل بينهم معارك تستنزفهم وتضعفهم حتى. التنازلات يمكن أن تكون مؤقتة.

الخليـفـة: إنها مواثيق يا عبد الله.

عـبـد الله: القوة هي ميثاق كل المواثيق يا خليفة المسلمين. وعلى كل الوقت مبكر للخوض في هذا الحديث. ما تزال أمامنا المهمة الأساسية. أن نخلص من الوزير وأعوانه. وهذه هي اللحظة. فأصدر الأمرلولاتك بالتحرك نحو بغداد. أما نحن فعلينا أن نهيئ ما يحتاجه قدومها. أمامنا ترتيبات كثيرة لا بد من اتخاذها، والوقت لا يرحم.

الخليـفـة: (مفكرا وساهما.. بعد فترة) هل تتخيل ما تحتاجه قوات كهذه تأتي لتحل في بغداد؟ أنت تعرف أن بطون العساكر كالبراميل لا تشبع ولا ترتوي.

عـبـدالله: هو ذا واحد من الترتيبات التي تنتظرنا.

الخليـفـة: الخزينة لا تشكو التخمة يا عبدالله.. وحتى ثرواتنا الخاصة لا تكفي. فمن أين سنسدد نفقات إقامتهم ومكافآتهم؟

عـبـدالله: لن نعدم وسيلة لتدبير المال وتسديد كل النفقات.

الخليـفـة: أتعتقد أن التجار لن يبخلوا.

عبدالله: التجار!

الخليفة: ولم لا؟ يعنيهم الأمر مثلنا. إننا نحمى مصالحهم أيضا.

عبدالله: الحقيقة ينبغى أن نقتصد فى استنزاف التجار ولم يبخلوا أبدا، وخزائننا شاهدة.

الخليفة: إذن .. من أين سنجد ما يسدد نفقات العساكر؟

عبدالله: مسألة بسيطة للغاية.. لماذا تأتى هذه القوات؟ إنها لا تأتى لتتنزه، وتتفرج على عاصمة المسلمين بغداد، وإنما لتؤدى واجبا مقدسا! إنها تأتى لتحمى للمسلمين خليفتهم، وتحفظ لهم وحدتهم، حماية الخليفة واجب على كل مسلم. فمن قوته يستمدون القوة، ومن ضعفه تدب إليهم الفرقة والشقاق ولهذا فعلى الجميع أن يساهموا بنصيبهم فى حماية الخليفة، وصون خلافته. ذلك أول واجباتهم كمسلمين.

الخليفة: (مبهورا) أوضح لى ماذا تعنى؟

عبدالله: ألم تفهم ما أعنيه! سنفرض ضريبة مقدسة على الناس فى بغداد، وبذلك نوفر كل النفقات اللازمة.

الخليفة: (باسما) ضريبة مقدسة! حمانا الله من دهائك. هى فكرة معقولة لكنها لا تخلو من مزالق. أخشى أن تثير الضريبة تذمر الناس. وفى مثل هذا الظرف من السهل أن يتحول التذمر إلى فتنة. حينئذ قد تنقلب الأمور رأسا على عقب.

عبدالله: فتنة! عامة بغداد تحدث فتنة! (تلوح على وجهه أبشع علامات الازدراء).. ينقصك يا خليفة المسلمين أن تعرف رعيتك. أما أنا فأعرفهم جيدا.. قد يتذمرون، ولكن ما أن يراوجه حارس

حتى يمضغوا تذمرهم، ويبلعوه مع ريقهم. وفى النهاية يهرولون، لينبشوا الأرض من أجل تسديد الضريبة.

الخليفة: كم تبدو واثقا من خططك وتقديراتك!

عبدالله: تعرفنى بارعا فى الحساب والبارع فى الحساب لا يضيع اللحظة الملائمة للتحرك. كل شئ محسوب وهذه هى اللحظة. فأصدر يا خليفة المسلمين أوامرك، ولنتهيأ للضربة الفاصلة.

الخليفة: مادمت واثقا إلى هذا الحد.. فلتكن مشيئة المولى.

زيون: مشيئة المولى، أو مشيئة هذا الداهية!

الحكواتى: (فيما ينسحب الممثلان حاملين معهما قطع الديكور) هذا ما كان من الخليفة وأخيه عبد الله.. وأما عامة بغداد فحالهم من سئ إلى أسوأ، يسكن قلوبهم القلق، ويشلهم الخوف. يتامون ولا يعرفون علام سيستيقظون.. وبدأت المعيشة تزداد صعوبة. ندر الرغيف وازداد القل. وبدأ يمتزج الخوف بالجوع، والتعاسة بالحاجة، والألسنة الجافة تهتف: يا بصير.

(أثناء كلام الحكواتى تدخل امرأة مازالت صبية على حضنها طفل. يمكن أن تقوم بدورها الممثلة التى أدت دور المرأة الثانية. غرفة بائسة شبيهة بالكوخ.. تجلس المرأة شاحبة تعيسة، وهى تضع طفلها فى حجرها. الطفل لا يكف عن الصراخ والعويل. المرأة شديدة البؤس والتعاسة.. تبدو وكأنها تنتظر)

الزوجة: (تهدهد الطفل.. وهى تغنى) هى يا الله.. هى يا الله.. نام يا عينى نام.. هى يا الله.. (يواصل الطفل البكاء) يا الله.. ماذا

أفعل! (تفتح ثوبها، وتخرج ثديها لترضعه) تعرف أن ضرعى جاف، ولا توجد فيه قطرة واحدة من الحليب. من أين سيأتى الحليب، وأمك لم تضع فى فمها لقمة خبز منذ يومين! (الطفل لا يجد ما يرضعه، فيعود إلى البكاء) هى يا الله.. هى يا الله.

(يدخل الزوج، وهو شاب فى حوالى الثامنة والعشرين، يمكن أن يقوم بدوره الرجل الأول. وجهه مكفهر وحزين. يجلس على الأرض متحاشيا النظر إلى زوجته).

الزوجـــــة: (مبهوتة، تحدق فيه.. ولكنها للحظات تخاف أن تتكلم بعد قليل) أراك تعود بسرعة؟

الـــــزوج: (الطفل يبكى دائما)

الزوجـــــة: هل توسلت إليه كما وعدتنى؟

الـــــزوج: لا فائدة.

الزوجـــــة: (يائسة) أعرف كبرياءك. فضلت أن تكابر على أن تتوسل

الـــــزوج: أقسم إنى توسلت.

الزوجـــــة: وشرحت له كل ما نقاسيه؟

الـــــزوج: لم أترك إليه سبيلا.

الزوجـــــة: هل أقسمت له إننا لم نذق طعاما منذ يومين.. منذ يومين لم نضع فى أفواهنا لقمة خبز. هل قلت له أن ابننا سيموت من الجوع، لأن صدرى ناشف لايدر إلا الهواء! لو قلت كل هذا، لا يمكن أن يمنع عنك العمل ولو كان قلبه من حجر.

الـــــزوج: ولكن قلبه من حجر.

الزوجـــــة: حلفتك بالله.. هل ألححت عليه، وشرحت له كل ما نقاسيه؟

الـــــــزوج: (بعنف) والله كـدت أبوس قـدمـه. بقـيت ألح حـتى طردنى وهددنى بالضرب. يقول إنه ليس مجنونا ليدفع أجرة عـمال فى مثل هذا الكساد.

الزوجـــــة: (بعد فترة) يا رب ماذا حل بالدنيا؟ عملت عنده سنتين!

الـــــــزوج: وإذا بدأ الكساد رمانى كالكلب.

(يعلو صراخ الطفل، فتنظر إليه المرأة بحزن وتهدهده)

الزوجـــــة: خلت كل القلوب من الرحمة.. ماذا حل بالدنيا؟ (الصراخ يعلو) نم يا حـبـيـبى نم.. آه.. لو أسـتطيع لعـصـرت لك قلبى، وأطعمـتك.. (تهدهده) هى يا الله.. هى يا الله.. (بعد لحظة) والآن.. ما العمل؟

الـــــــزوج: لست أدرى.

الزوجـــــة: ومن الذى يدرى إذن؟ سيموت الصغير بين أيدينا.

الـــــــزوج: (مقهور الصوت) ماذا أفعل؟

الزوجـــــة: أى شئ.. لن نتركه يموت بين أيدينا.

الـــــــزوج: (بعد تردد.. بلهجـة يرعـشـها الخـجل والغضب، وهو مطرق الرأس) لماذا لا تذهبين إلى جارنا! فى بيته مؤونة تكفى لسنة. يمكنك أن تسأليه شيئا نأكله.

الزوجـــــة: (يتغير وجهها.. بعد لحظة تتأمله بعينين جاحظتين) أتطلب منى ذلك؟

الـــــــزوج: (لا يزال مطرقا فى الأرض)لعله الحل الوحيد.

الزوجـــــة: أأنت جـاد؟ إنك تعـرف مـا يعنيـه الذهاب إلى بيتـه. (يغص صـوتهـا بالبكاء) لا.. لا يمكن أن تطلب منى ذلك. لا يمكن..

(تنفجر دموعها).

الـــــزوج: (ينفجر قهره) ماذا أفعل؟ تضعين كل شئ على رأسي، وكأني المذنب. أأنا المسؤول عما يحدث في بغداد! أأنا من أوقع الفتنة بين الخليفة والوزير! أأنا من أحدث الكساد، وأوقف الأعمال! قولي لي ماذا أفعل؟ لست ساخرا ولا رجل معجزات، تعرفين أن قلبي ينزف، وأن صراخه يكويني في الأعماق.

(خلال ثورته، تنهض المرأة، وتجلس إلى جواره ثم تمسح على شعره).

الزوجـــة: (مع شهيق دموعها.. بحنان) أعرف.. أعرف.. أني امرأة موجوعة وحمقاء. لا أريدك أن تغضب. الجوع يعض كما تعرفَ.

(يسود الصمت.. الرجل يدفن وجهه بين يديه. بعد قليل تنهض المرأة فتضع الطفل على حشية من القش، وتهم بالخروج..)

الـــــزوج: (كالمجنون يمسك معصمها) ماذا تفعلين؟

الزوجـــة: الله بصير، ولن يضن علينا بالغفران.

الـــــزوج: ابقَي هنا.

الزوجـــة: الله يغفر.. لن نتركه يموت ونحن نتبادل النظر؟

الـــــزوج: لا.. ليس الآن .. لا أستطيع.. لا أستطيع..

(يشدها إلى جواره يجلسان، وتتساقط دموعهما معا، بينما يعول الصغير).

الزوجـــة: يا بصير..

زبـــون٢ : أستغفر الله العظيم.

زيـــــون٤: في النهاية لا تقع إلا على رؤوس المساكين

زيـــــون٢: الله يساعد..

الحـكـواتـي: وكان المملوك جابر مايزال في الغرفة المظلمة، لا يدخل إليه الضوء إلاّ من نافذة صغيرة كفتحة العين. ينتظر أن ينمو شعر رأسه كي يخرج من حبسه، ويرحل حاملا الرسالة (أثناء كلام الحكواتي يجرى تركيب غرفة على المسرح لها باب ونافذة ضيقة جدا النافذة مشبكة بالحديد، والباب مغلق يقف عليه حارس) وكان الوزير وكأنه على جمر يبدو نافذ الصبر. وفي كل يوم ينفتح له باب الغرفة (الحارس ينحنى ويفتح الباب أمام الوزير الذى يدخل) فيدخل على جابر. يمسح بيده على رأسه، ويقيس نمو شعره، ولو ملك لأمر الشعر أن يطول لساعته، ويصبح كجدائل امرأة. لكنه كان يخرج كل يوم ضيق الصدر، في يده علبة نشوقه، ويمضى لينتظر يوما آخر. (يخرج الوزير تحية احتفالية من الحارس.. ينغلق الباب) ولم يكن يستطيع أحد أن يزور جابر في عزلته، أو يقترب من غرفته. فأمر الوزير الصارم، وغضبه عات لو علم.. لكن للنساء حيلهن وقد استطاعت زمرد بعد تعب وجهد، أن تجعل الحارس يغمض عينيه، وأن تسرق لحظات من وراء النافذة.. تتحدث خلالها مع المملوك، الذى يخفق قلبها لمجونه وحسن كلامه.

(تكون زمرد قد ظهرت، واقتربت بخطوات حذرة من النافذة الصغيرة. تبرز مشيتها مفاتن صبية يضج جسدها بالحياة. على وجهها نقاب نصفي لا يخفى جمال عينيها، ولا القلق الذى يطلى سوادهما).

جـــــابر: (يتـدافع صـوتـه بفـرح من وراء النافـذة) زمـردا لـم يخطئ إحساسي إذن. عرفت أنك تأتين.. تلك هي العلامة. فجأة التهب رأسي، وانتفض كل ما في جسدي، فأيقنت أنك تأتين. وها أنت ذي بلحمك ودمك.. لم تفارقي خيالي يا زمرد.

زمـــــرد (القلق والحزن واضحان في صوتها ونظرتها) جئت متسترة، ولا ينبغي أن يلمحني أحد.. تعبت كثيرا حتى نجحت في الوصول إليك.

جـــــابر: ولم؟ ألا يعرفون أنك أصبحت لي؟

زمـــــرد: لم يصبح لك شئ بعد؟

جـــــابر: ماذا تقولين؟ وافق الوزير وكانت وعوده صريحة.

زمـــــرد: ربما وافق ووعد..

جـــــابر: (بعنف) لا تقولي.. ربما. بل وافق بالفعل

زمـــــرد: أصدقك. ولكن لم يصبح لك شئ بعد. أنت الآن سر محبوس في غرفة مغلقة.

زمـــــرد: (غائمة العينين) ماتزال بيننا مسافة محفوفة بالمخاطر.

جـــــابر: ماذا تعنين؟ لم أسمعك مرة تتحدثين بهذه الجدية. أعرف صوتك يغنج مرحا، والكلمات تنزلق بين شفتيك لاهية مثيرة ماذا هناك؟

زمـــــرد: هذه الرحلة!

جـــــابر: أتخافين عليَّ! سأنهب الأرض كالخيال، وسأكون أسرع من طير. لو بدأت زينتك فسأكون إلى جوارك قبل أن تفرغي منها.

زمـــــــرد: إنى قلقة يا جابر.

جـــــــابر: ولم القلق؟

زمـــــــرد: لا أدرى.. أحيانا يعصر قلبى إحساس غريب، إنى أحبك يا جابر.

جـــــــابر: آه.. لو سمعت هذا التصريح فى ظرف آخر! ولكن بحق الله ارفعى النقاب.

(تتلفت زمرد حولها قلقة، ثم تفك طرف النقاب، فيظهر وجهها الجميل والمتناسق التقاطيع).

زمـــــــرد: لو لمحنى أحد، فسيسلخون جلد الحارس.

جـــــــابر: أفعل ذلك من أجلنا. هل تريد رجلاً بلا طموح بلا.

زمـــــــرد: أشعر قلبى ينقبض، ويتقلص. كان من الأفضل ألا تزج فى هذه القصة قيمة! كنت أظنك فخورة بى. ستتزوجين رجلا رفيع المقام ولديه ثروة. وسأعرف كيف أوظف هذه الثروة. الذكاء لا ينقصنى. وبالذكاء يستطيع المرء أن يصبح خليفة بغداد يا زمرد.

زمـــــــرد: إلا أن ما حولنا غامض وملئ بالمهالك. أصبح القصر كالقلعة الحراسة شديدة، والأوامر صارمة، والجميع يحملون أسلحتهم استعداد لطارئ أو مفاجأة. العبوس يخيم حولنا. وكل واحد يضع يده على قلبه خائفا.. حتى سيدتى شمس النهار بدأت تهمل زينتها. يدخل عليها الوزير مهموما يزمجر، (يتحول صوتها هامسا) وأحيانا تفلت منه كلمات يتطاير منها الهول. الواقعة بين الخليفة والوزير يا جابر.

جـــــــابر: فخّار يكسّر بعضه يا زمرد. المهم أن أبلغ الرسالة، وأنال مكافأتى.

زبـــــون١ : مثلك يربح ولا يخسر.

زبـــــون٢: يفهم سر الحياة وأصولها.

زمـــــرد: هل تعرف ما تحتويه الرسالة؟ لاشك أنها مليئة بالحماقات. أعرف كيف تكون مراسلات الحكام. ولكن ليكتب ما يشاء. تعنينى المكافاة لا محتوى الرسالة.

زمـــــرد: (مترددة بقلق) لا ادرى.. كنت اتمنى الا تورط نفسك. ومن يعرف! لو افتضح الامر، فلن تلمسنى إلا يد باردة ميتة.

جـــــابر: لا تقلقى.. ستكون يدى مشتعلة بالحياة عندما تلمسك. لست ذبابة حمقاء تسقط فى أى فخ. الأمر أبسط مما تتصورين سأنطلق كالريح. أبلغ الرسالة، وأعود لئلا نفترق بعدئذ.

زمـــــرد: إنى خائفة يا جابر لابد أنها خطيرة. ولعلها تمس مولانا الخليفة، لو علم أحد..

جـــــابر: وتشغلين نفسك بالخليفة والوزير! فخّار يكسّر بعضه يا زمرد. لن نحمل همومهم أيضا. مستقبلنا أهم. تصورى فجأة وجدت أمام فرصة عمرى، فهل أتركها! أكون مجنونا لو لم أثب عليها. كل الفرق بين الفشل والنجاح، هو أن يعرف المرء كيف ينقض على الفرصة. لا.. لا تخافى. المهمة سهلة ولا مبرر للقلق. سأعود.. وستكون أمامنا كل الأيام، أيام حافلة وبهيجة.

زمـــــرد: (شبح ابتسامة على وجهها) أدعو الله أن يكون صحيحا ما تقول. تراودنى هواجس ثقيلة.

جـــــابر: اطردى هذه الهواجس، ودعى وجهك يشرق كعادته. أحبه

مشرقا كالصباح سأخبئ صفاء عينيك، وإشراقة وجهك فى صدرى، وسيمداننى بالقوة طوال الرحلة.

زمــــرد: أواثق، حقا أنه لا خطر عليك؟!

جــــابر: هناك خطر واحد فقط.

زمــــرد: (بلهفة ،وجدية) ما هو؟

جــــابر: كل هذه المفاتن أمامى، وتريدين ان احتشم! (يضرب بيده على القضبان.. متحسرا) لولا قضبان النافذة... ولكنى عائد فور خروجى. ابدئى زينتك عندما أعود، ينبغى ان اشم عطرك على بعد فراسخ من بغداد.

(يظهر الحارس، ويتنحنح).

زمــــرد: (بحركة عاجلة ترفع نقابها، وتربطه) حان الوقت. يجب أن أمضى. كن حذرا يا جابر وتحاش المخاطر. سأقضى الوقت كله أبتهل لعودتك، فحافظ على نفسك.

جــــابر: لا تخافى.. سأسبق طيور البرارى.

(إشارة وداع. تغادر النافذة، وهى تلتفت من وقت لآخر ناحية جابر غامزة وباسمة)

الحـكـواتـى: (بعد فترة) وبقى جابر حبيس غرفته يتردد عليه الوزير كعادته حتى جاء يوم قدر فيه الوزير أن يشعر طال حتى صار كافيا لستر الكتابة. لا يظهر جزء من كلمة ولو تغلغت الأبصار بين الشعرة. حينئذ طاف السرور بوجهه، وقاد مملوكه ليهئ أمر رحيله دون إبطاء فالوقت ثمين والبرهة قد تقلب أوضاعا، وتغير مصيرا.

(يظهر الوزير محمد العبدلى، ومعه المملوك جابر وقد بدا شعره ناميا، وإن كان أقصر مما كان عليه أول ما رأيناه. إنهما فى ركن من الديوان).

الـــوزيـــر: حانت اللحظة يا جابر. لحظة لن ينساها لك لا وزير ولا أمير ولا مؤرخ فى بغداد.

جــــــابر: يبهج القلب ألا ينسانى سيدنا الوزير. أما الآخرون فلا شأن لى بهم. أيأمر سيدى مملوكه بالرحيل؟

الـــوزيـــر: نعم حان الوقت، وللدقائق ثمن.

جــــــابر: وإلى أين يريد سيدى أن أتوجه برسالته؟

الـــوزيـــر: قبل أن أخبرك.. اسمع يا جابر تحذيرى، وإنى أعنى ما أقول. لو عرف أنس أو جن المكان الذى تقصده، فاعلم أنك مفقود، وأن جهنم تفتح أبوابها لابتلاعك.

جــــــابر: معاذ الله.. أيشك سيدى بأمانة مملوكه. لاعشت إن كنت ممن يخونون السر أو الأمانة.

الـــوزيـــر: أتوسم فيك الاخلاص، إلا أن التحذير لا يضر.

جــــــابر: التجربة محك الإخلاص. وسيرى سيدى إن كنت أستحق ثقته أم لا.

الـــوزيـــر: طيب.. ستتوجه يا جابر قاصدا بلاد العجم. تطلب حاضرتها، وتسلم الرسالة إلى ملكها.

جــــــابر: بلاد الملك «منكتم بن داوود»!

الـــوزيـــر: نعم بلاد الملك «منكتم بن داوود» والرسالة لا تقبل التأخير كلما أسرعت كانت الخدمة أجل، والجزاء أعظم.

جـــــابر: سأقطع المسافة كالبرق الخاطف. لن تشرق الشمس بعد أصابع اليد، إلاّ وأكون أمام الملك «منكتم بن داوود»

الـــوزيـــر: (يبتسم ويمسح على شعره. يطوف في نظرته معنى غامض) كم تعجبني همتك! لو كان لدى عشرة من أمثالك لغزوت بهم الدنيا. تدبيرك يا جابر لن ينساه وزير ولا أمير ولا مؤرخ فى بغداد.

جـــــابر: جاد عليّ سيدنا الوزير بأغلى مما تستحقه خدمتى التافهة. وعوده لا يحلم بمثلها مملوك.

الـــوزيـــر: الوعود محفوظة. سننفذها ونزيد، إن كنت تسأل عنها.

جـــــابر: والله أردت التعبير عن الامتنان لا أكثر. أنا رهن الإشارة، فمتى يأمر سيدى بالرحيل؟

الـــوزيـــر: فى الحال.. وكل شئ جاهز، أسرجوا أفضل جواد، وهيأوا كل ما تحتاجه الرحلة. ينبغى أن ينجح سباقنا مع الوقت ولا داعى للتنبيه مرة أخرى يا جابر.. الحذر أهم من زاد الطريق، وإن وقعت فى مأزق فلا تضيع نباهتك وأحسن التخلص.

جـــــابر: سأفعل أى شئ، لأكون كما يرجو سيدى.

الـــوزيـــر: هيا إذن.

جـــــابر: (مترددا) أيسمح لى برجاء صغير قبل الرحيل؟

الـــوزيـــر: اطلب ما تريد.

جـــــابر: أن ترعى سيدتى شمس النهار خادمتها زمرد، وأن يتم تجهيزها خلال غيبتى.

الـــوزيـــر: (يضحك) عرفت سر العجلة. هو العشق إذن. لا تخف سيكون

لك ما تريد. نرعاها، ونأمر بتجهيزها كأنها أميرة وعندما تعود لا يكون عليك إلاَّ أن تدخل الحمام، وتخرج منه إلى مخدع الأحباب، هيا بنا.

جـــــابر: يعجز اللسان عن الشكر والدعاء.

(يخرجان...)

الحكواتي: كانت عدة الرحيل جاهزة، وعندما تهيأ المملوك جابر لاعتلاء جواده عانقه الوزير وسط دهشة الحاضرين، وتمنى له السلام.. ثم أمر أن يرافقه بعض المماليك إلى باب المدينة، حتى يتأكدوا من خروجه بأمان. ومن باب سرى فى القصر، خرج الجميع يتقدمهم جابر، وساد الترقب والقلق حتى عاد المماليك يحملون بشارة النجاح، وخروج حامل الرسالة بسلام، حينئذ بدا القصر كله، وكأنه يتنهد بارتياح ، واختلج الصمت الذى كان يخيم على الأروقة. كثر الكلام، ودار الحديث عن المملوك الذى عانقه وزير بغداد، وخرج يحمل سراً خطيراً، وتنتظره إذ يعود هبة وفيرة.

(يدخل المملوكان ياسر، ومنصور، يلبسان ثياب القتال، ويحملان السلاح كأنهما فى معركة. يضعان ديكورا لبرج مراقبة على أحد أسوار القصر، ويتخذان وضعية الحراسة. منصور مطبق الملامح، يبدو عليه الضيق، ياسر مرتبك، يعكس وجهه رغبة فى الكلام، ولكن ملامح منصور لا تشجعه.. يمتد بينهما صمت ثقيل. يتململ ياسر.. يرمق زميله بعين حذرة، وفى النهاية يتغلب على تردده، ويبدأ الكلام. حديثه مقطع فى البداية).

ياســـــر: يا حـفـيظ.. مـثله يجب أن يعلق خـرزة زرقـاء، ويتـقى شـر الحاسدين (صمت) مثله يحسد حقا (صمت) رأيته ينسل من بينهم كما تنسل الشعرة من العجين. خرج ضاحكا وكأنه يتجول فى ردهات هذا القصر. (صمت) لو لم أكن أحد الذين رافقوه، لما صدقت أنه يفلت من الحراس بهذه السهولة. يا حـفـيظ.. يخطف الكحل من العين لو أراد. (صمت) لا أحـد يجـرؤ على مواجـهة نظراتهم أما هو فقد مازحهم وأضحكهم لم نصدق عيوننا، لكنهم كـانوا يضـحكون بالفـعل، وكـأنه يدغـدغـهم (صمت) لديه بداهة لا تخونه أبدا. أراد واحد منهم أن ينهب زوادته، فـواتتـه الحـيلة على الفور، ولم يـفـقـد لقـمـة الخـبـز. (يضحك) سمعت بعضا من حديثه، روى حكاية عـجيبة عن امرأته التى تدبر قتله، لأنه تؤثر عشيقها عليه. وقال إنه اكتشف السم مرارا فى طعامه، ويخشى أن تكون قد فعلتها هذه المرة أيضـا. (يضـحك) آه .. لو رأيت الحراس كـيف نفضـوا أيديهم بخوف، وتجنبوا الزوادة كأنها قطة ميتة. لم يفقد ولو لقمة خبز (لحظة صـمت طويلة... يستـأنف الكلام بعـدها، وقـد اخـتلج صوته نبرة حالمة) سينال كل ما يشاء. لن تخيب له رغبة قط يا حفيظ.. لديه كل الإمكانيات اللازمة لينال ما يشاء. من كان يتخيل أن هناك رجلا يجرؤ على ركوب هذه المخـاطرة! ألا تذكر.. كنا معا عندما نبتت فى رأسه الفكرة. حسبناه أحمق.. لاشك أنه أبرعنا جميعا انقض على الفرصة كالباشق، ونالها مثل الباشق. لو أن لى قليلا من ذكائها لطافت فى ذهنى بعض

الأحلام، يا حفيظ.. خرج من بغداد كما يخرج إلى النزهة. رجل مثله يجب أن يتقى شر الحاسدين.

منصـــور: (يفقد هدوءه. ينفجر بصوت نافد الصبر) ورجل مثلك يجب أن يردموا فمه بالحجارة، ويسدوه بالطين. أوقف هذا النول. منذ ساعة وأنت ترغى. ألا تترك سيرته! لا أريد أن أسمع شيئا عنه.

يـاســـر: أيغضبك حديثى؟ يا حفيظ.. أعرف أنك تحبه كثيرا

منصـــور: أحبه! أنا أحبه! ليت الطاعون يفتك به قبل أن تغيب بغداد عن بصره.

يـاســـر: تقول ذلك.. لكنى أعرف أنك تحبه. الغضب لا يخفى حزنك. (لحظات صمت).

زيـــون؟ : (ينتهز فرصة الصمت) ردنا إلى جابر يا عم مونس.

يـاســـر: (يتابع كلامه) يا حفيظ.. أحيانا أشعر أنى لا أفهمك يا منصور، لماذا يغضبك ما أفعله؟ أهناك من يملك القدرة على اقتناص فرصة كهذه، ويتركها!

منصـــور: (منفجرا) تسميها فرصة! لا فائدة.. لن تروا أبعد من أنوفكم. يلقى بنفسه وهو معصوب العينين فى دوار جياش.. أهذا ما تسميه فرصة؟

يـاســـر: دوار جياش! يا حفيظ.. ولكن فى هذا الدوار امرأة جميلة، وثروة كبيرة. وفوق هذا ما يشاء من المراتب. إنه يرى جيدا ماذا يوجد أمامه. ليس جابر بالرجل المعصوب العينين.

منصـــور: المرأة والثروة.. نعم.. هذا كل ما يراه. وخلفهما هل يرى أن فى الدوار يجيش الهلاك أيضا؟ هلاكه. وربما هلاكك أنت الذى

تتحدث بغباء، وتحلم بفرصة. وربما هلاكي أنا.. وربما هلاكنا جميعا.

ياســـــر: (خائفا) إنك تقسو وتبالغ. يا حفيظ.. أحيانا لا أفهمك.الهلاك يحيط بنا دائما سواء ذهب جابر أم بقي.

منصـــور: (حزينا.. كأنه يتحدث إلى نفسه) طبعا يحيط بنا كيف لا تريده أن يحيط بنا! الأذكياء يلقون بأنفسهم معصوبي العيون في الدوارات. لا يلمحون فيها إلا نساءً وثروات، والأغبياء مثلك يحسدون الأذكياء، طبعا إن الهلاك يحيط بنا كرطوبة هذا الليل.

ياســـــر: كلماتك قاسية ولها وخز لاشك أنك حزين وغاضب. أحيانا أشعر أني لا أفهمك يا منصور.

منصـــور: (وهو ينصرف) ولهذا ستموت سعيدا.

ياســـــر: يا حفيظ.. لاشك أنه غاضب وحزين.
(يحمل قطع الديكور. ويخرج هو الآخر).

زيـــــون٣: عد بنا إلى جابر.

زيـــــون٢: لانريد أن نفارقه خطوة واحدة حتى نهاية القصة.

زيـــــون١: تلذنا أخباره أكثر من الجميع.

الحـكـواتـي: وكان جابر يقطع الفيافي والقفار. يتحسس رأسه، حيث خط الوزير رسالته، فيغمر الفرح جوانحه. كان يهمز جواده، وينطلق سريعا.. سريعا كالسهم. يغني وهو يقطع الفيافي قاصدا بلاد العجم.
(يظهر جابر.. يمثل إيمائيا وصف الحكواتي لسفره عبر الفيافي

والقفار. يصاحب الإيماء صوت خبب الجواد).

جـــــابر: «الطريق الذاهبة إلى بلاد العجم متعرجة وطويلة. أما الطريق العائدة من بلاد العجم فهى مستقيمة وقصيرة. البرارى خضراء وملونة، لكنها ساكنة. ولا تستطيع أن تهمز جوادها مثلى. الشمس متوهجة، تتألق كالعروس، لكنها مقيدة بدورتها. ولا تستطيع أن تهمز جوادها مثلى. أقسو على حوافر جوادى لأنى ملئ بالأشواق. كل ما ينتظرنى لا يحب الصبر أو الفراق. لا الزوجة، ولا الثروة، ولا المراتب. أو الفراق. الطريق الذاهبة إلى بلاد العجم متعرجة وطويلة. أما الطريق العائدة من بلاد العجم فهى مستقيمة وقصيرة.

انطلق يا جوادى.. انطلق كريح، أو كسحابة كل ما ينتظرنى..

(ويخرج مختفيا)

الحكواتى: هذا ما كان من جابر. أما أهل بغداد، فلم يكونوا يعرفون ما يخرج من مدينتهم، أو كيف تتطور الأحداث من حولهم.

زبـــون٤ : مساكين.

دائما مثل الأطرش بالزفة.

الحكواتى: يبتهلون، ويلبدون خائفين، صابرين. الخناق يضيق على أعناقاهم، والجوع يعصر أمعاءهم. وفوق هذا بدأ الحراس يقتحمون البيوت، لينتزعوا للخليفة ضريبة مقدسة.

(يظهر الرجلان الثانى والثالث من عامة بغداد، ثم يأتى الرجل الرابع، فيجلس قربهما هادئا كعادته. يطوق الحزن وجهه).

الرجل الثانى: (بعد لحظة) طالت هذه المرة.

الرجل الثالث: طالت. وصارت الحياة عسيرة.

الرجل الثاني: على كل حال.. تنبأ المنجمون بأن هذه السنة ستكون صعبة على العباد.

الرجل الثالث: الله أرحم الراحمين.

الرجل الرابع: (بلهجة هادئة) وحق الله. ما رأيناه أقل بكثير مما سنراه والأيام تخبئ لنا مفاجآت صعبة.

الرجل الثاني: أتشتغل بالتنجيم أيضا!

الرجل الرابع: أنا! لم أصغ في حياتي إلى ما يقوله المنجمون. لكني أحاول بما

الرجل الثالث: أستطيع أن أرى وأسمع. والنذر كثيرة حولنا، لمن يريد أن يرى.

الرجل الثالث: يا سيدي نرى أو لا نرى. المهم أن تنتهي هذه المحنة، ونكسب السلامة.

الرجل الرابع: وحق الله.. لن تكون النهاية سهلة كما نتمناها الوزير دبر شيئا فيما يبدو، وجيوش الولايات ستزحف نحو بغداد ملتهمة في طريقها الأخضر واليابس. كلاهما يحوك شبكته ليصطاد بها الآخر. ولاتزال أمامنا مفاجآت قاسية.

الرجل الثالث: ليحركوا، وليدبروا ما يشاؤون. هذا شأنهم.. أما نحن فلا نطلب إلاّ الفرج.

الرجل الثاني: الفرج واستقرار الأوضاع على حال.

الرجل الثالث: أي حال أن يتم بينهما الوفاق، أو ينتصر أحدهما على الآخر.

الرجل الثاني: المهم أن ننتهي.

لا هذا أبونا ولا ذاك أخونا.

زبـــــون٢ : ومن يتزوج أمتنا نناديه عمنا.

الرجل الرابع: ولكن هل تعلمان أن الشباك تحاك من جلودنا أى وحق الله من جلودنا.

الرجل الثانى: (يغضب) دع جلودنا بعيدا. لا ينطق لسانك إلا بالشؤم. يكفى ما نحن عليه.

الرجل الثالث: وما أهمية قولك أو قوله. المقدور مقدور.

الرجل الرابع: لا يريد أحد أن يرى.

(تدخل المرأة الأولى وهى تولول.. يلتفت إليها الجميع)

المرأة الأولى: الله أكبـر على الظالمين. ظلم. والله ظلم. كنسوا البيت، ولم يتركوا فيه شيئا كان لدينا كيل من البرغل، فأخذوه. وأخذوا الطنجرة أيضا من أين نأكل الآن؟ هل نطبخ التراب؟ هل نسلق الحجارة، أم روث الماشية!

الرجل الثالث: ماذا هناك أيتها المرأة

الرجل الثانى: اهدئى. اهدئى.

المرأة الأولى: (ماتزال تولول) دفعوا الباب، ودخلوا البيت كانت السيوف تلمع بأيديهم. قالوا إنهم يريدون ضريبة لمولانا الخليفة.

الرجل الثالث: (بأصوات متفاوتة، ومليئة بالدهشة) ـ ضريبة! ضريبة لمولانا الخليفة. ضريبة!

المرأة الأولى: أى نعم. ضريبة مقدسة لتأييد مولانا الخليفة هذا ما قالوه. ومن أين لى أن أدفع ضريبة؟ لو كانت روحى وأرواح أطفالى معلقة بثلاثة قروش، لما استطعت افتداءها. لا عمل ولا مكسب. ولا شئ. كنا نسلق كل يوم قبضة من البرغل، وننتظر الفرج. أما

الآن.. أخذوا كل شئ. إنهم يدورون على البيوت. يأخذون ما تحت الناس وما فوقهم، إن لم يدفعوا ما عليهم.

الرجل الثالث: شئ لا يصدق.. ضريبة جديدة فى هذا الوقت!

الرجل الرابع: وحق الله.. إنه أمر محتوم فى هذا الوقت.

الرجل الثانى: اللهم نجنا. بالكاد نجد ما نأكله. ومن أين ندفع الضريبة! هل قلت إنهم يدورون على البيوت؟

المرأة الأولى: والآن.. ماذا أفعل الآن؟ كيف أطعم صغارى؟ من أين أتسول لهم لقمة تسد الرمق (وهى تبكى) يا رب.. ما هذا الذنب العظيم!.

الرجل الثالث: (وهو يتنهد، ويمضى بدوره) ماذا نفعل؟ نصبر والله مع الصابرين.

الرجل الرابع: ما هى إلا البداية. وحق الله.. إنى أرى جلودنا مسلوخة. والآتى أدهم وأقسى.

الرجل الثالث: (بحدة قبل أن يمضى) سلخت أم لم تسلخ.. ماذا نستطيع أن نفعل؟

الرجل الرابع: ما أعرفه على الأقل، هو ما نفعله.. لا يقودنا كما ترى إلى الأمان.

الرجل الثالث: ولكن أيها الرجل الذى يتبجح كثيرا بالكلام. قل لى هل تستطيع العين أن تقاوم المخرز؟

الرجل الرابع: وحق الله.. لابد أن ذلك ممكن.

الرجل الثالث: نعم.. إذا كان المرء أعمى (ويمضى).

الرجل الرابع: (ينظر إليه بحزن) أهذا ما تقوله! لا شك إذن أن الآتى أدهى وأقسى..

المرأة الأولى: والآن.. لم يبق لنا شئ.

الرجل الرابع: (وهو ينهض أيضا) إلا البكاء والانتظار كالآخرين. (يمضى.. ثم تتبعه المرأة، وهى تبكى).

الحكواتى: وبعد طول تعب ومخاطر، وصل المملوك جابر إلى بلاد العجم. ومن شدة لهفته للإياب، لم يحس بالتعب، ولا بمشقة الطريق. اتجه من فوره إلى قصر الملك منكتم يطلب المثول بين يديه. وكان يقول فى نفسه.. عندما أخرج من هذا القصر أكون رجلا ذا شأن. وتناوله حارس من حارس فى دهاليز قصر كالمتاهة. حتى دخل على ديوان الملك الذى تهتز لسطوته القلوب، وأقدام أشجع الرجال. (يظهر ديوان الملك منكتم بن داوود.. وهو فاخر الرياش، وشبيه بديوان كل من الخليفة والوزير. الملك منكتم يجلس على العرش، وإلى جواره ابنه هلاوون يؤدى الدورين الممثلان اللذان أديا دورى الوزير وعبد اللطيف، وثانيا دورى الخليفة وعبد الله. تنيم ملامح الملك منكتم بالغطرسة واللؤم).

جابر: (التعب باد عليه.. ينحنى بإجلال كبير) السلام على مولاى.. ملك الملوك وسلطان السلاطين منكتم بن داوود.

الملك: من أنت؟ وماذا تحمل؟

جابر: أنا عبدكم جابر.. وأحمل رسالة من سيدى وزير بغداد محمد العبدلى.

الملك: رسالة من وزير بغداد! هل انتهى أخيرا من التردد، وضرب الأخماس بالأسداس.

جـــــــابر: عبدكم لا يعرف شيئا مما هو مخطوط فى الرسالة.

المـــلـــك: هاتها إذن (يتردد جابر، وهو يراقب هلاوون) ماذا تنتظر؟

جـــــــابر: الرسالة سر خطير.. وأوصانى سيدنا الوزير، أن أسلمها لمولاى الملك على انفراد.

المـــلـــك: (يغضب) أتملون علينا شروطا! هذا ابنى هلاوون، ولاأخفى عنه شيئا، فهات الرسالة بالعجل، قبل أن أجعل رأسك بين قدميك.

جـــــــابر: (مرتعدا) العفو يا مولاى.. ما أردت إثارة غضبكم، أوإساءة الأدب أمامكم. (يتقدم مبالغا فى الاتضاع والتأدب) هو ذا رأس. الرسالة مخطوطة عليه.. وإن حلق الشعر بانت الكلمات.

المـــلـــك: (مندهشا) الرسالة مخطوطة على رأسك! فكرة ظريفة والله.. الحذر لا ينقض وزير بغداد. ولعل وراء حذره ما يسر من الأبناء.. هلاوون.. هات موسا، واحلق شعر هذا المملوك لنرى ماذا خط لنا وزير بغداد!

هـــــلاوون: فى الحال يا أبت..

(يتجمد المشهد كله على صوت الحكواتى. يخرج هلاوون، ثم يعود.. وتتم الحلاقة بحركات قاسية وعبر مشهد إيمانى،

الحـكـواتـى: تلاحق الحركات فيه كلمات الحكواتى).

وخرج هلاوون، وعاد يحمل موسا. وبيد يعجلها الفضول حلق لجابر شعره، فبانت تحته رسالة الوزير مخطوطة بمداد لا يمحى. قرأ الملك منكتم الرسالة، ثم أعاد قراءتها، وجابر مطرق فى الأرض حباسا أنفاسه، وحالما بالعودة وهمس الملك لابنه بكلمات لم يسمعها أحد، فخرج هلاوون مرة أخرى من الديوان.

الملك: (مبتسما، والخبث يلون لهجته) قرأنا الرسالة أيها المملوك وسننفذ ما يطلبه وزيركم منا؟ قل.. أما زال يحب النشوق كما أعرفه؟

جابر: أى والله يا مولاى.. علبة النشوق لا تفارق جيبه. وأفضل هدية ترسلونها مع الجواب، هى صندوق من النشوق العجمى. لن ينسى هديتكم ما عاش.

الملك: سنرسل له إذن كل ما فى بلاد العجم من النشوق. ولكن هل تستطيع أن تحملها؟

جابر: من أجل مولاى الملك، وسيدى الوزير، مستعد لتحمل كل الصعاب. لكن أرجو أن يتكرم مولاى فيسمح لى بالعودة سريعا إلى بغداد.

الملك: أتحب بغداد إلى هذا الحد!

جابر: هناك من ينتظرنى فيها. (يدخل هلاوون، ومعه لهب وهو رجل ضخم الجثة، أقرع الرأس، له شاربان كثان، ووجه جامد الملامح مخيف)

الملك: (بابتسامته الخبيثة) إذن.. قده إلى بغداد يا لهب..

لهب: منحنيا انحناءة خفيفة لاتخفى قسوته) سمعا وطاعة يا مولاى..

جابر: (حائرا) مولاى.. ولكنى.. (لهب يمسكه من ذراعه بعنف، ويجره وراءه. جابر مشدوه لايعرف ما يقول. يبقى فى الديوان الملك وابنه)

الملك: أصبحت الريح مواتية للسير إلى بغداد يا هلاوون.

هلاوون: أنتظر هذه الريح منذ وقت طويل. هل أجهز الجيش؟

الملك: تبدو متلهفا للحرب؟

هلاوون: لن أكون قائدا جديرا بجيش الملك منكتم بن داوود قبل أن أدك صروح بغداد.

الملك: إذن.. جهز الجيش، وأعد العدة. ستكون لك بغداد وسينعقد لك لواء القيادة. إنما أريد أن يتم كل شئ. بسرية. لاينبغى أن تشيع أبدا أنباء حملتنا سيكون هجومنا صاعقا ومباغتا، لا ينبئ عنه غبار، ولا حامل أخبار. وبما أن لدينا من يفتح الأبواب، فستفقد بغداد هيبتها، وتنهار تحت حوافر خيولنا.

هلاوون: معنى هذا أنه ليس أمامنا وقت طويل للوداع.

الملك: جيشنا فى تعبئة دائمة، وتكفى ساعات قليلة لا ستكمال كل شئ. الإسراع يسهل علينا القضاء على الإمدادات فى الطريق، أو محاصرتها. عندما تصبح بغداد قريبة، ينبغى أن يستريح العسكر مختبئا فى النهار، ثم يسير فى اليل هذه هى الطريقة المثلى كى نضمن المباغتة.

هلاوون: هل يمكن حقا الاعتماد على الوزير ورجاله؟

الملك: سيكونون كالكلاب.. يلعقون أحذيتنا، ويطلبون مرضاتنا أسوار بغداد عاتية يابنى، وإذا لم أضمن هدمها من الداخل، لا أرمى بجيشنا إليها يهلك، وهو يناطح حجارتها.

هلاوون: لم يبق إذن إلا أن ننفخ بوق النفير.

الملك: يوم مشهود.. بغداد العظيمة ترتخى، وتمدد بكل بهائها أمام جيوش ملك العجم. حلم قديم لمنكتم بن داوود. ولوالده من قبله. تعال يا بنى.. سأنفخ البوق معك فى هذا اليوم العظيم.

(يمسك الملك منكتم يد ابنه هلاوون، ويخرجان معا..)

زبـــون ١ : وجابر!

زبـــون ٣ : ماذا حدث له؟

الحكـواتـى : ولم يكن جابر يعرف من هو هذا الرجل الذى يمسكه بقبضة من حديد، ويجره وراءه غير عابىء بذهوله أو قلقه. ومن دهليز إلى دهليز، حتى وصل به إلى غرفة بدت غريبة تمتلئ بالسياط والسلاسل والبلطات. وكان لهب نفسه تفوح منه رائحة شبيهة برائحة المقابر. وكلما سرق جابر نظرة إلى وجهه المعدنى، أو تطلع فى الغرفة حوله،شعر قلبه يغوص فى أعماقه. والصمت ثقيل يزيد الغم غما، والخوف خوفا. وحاول جابر أن يبدد رهبة الجو، فراح يتكلم آملا أن يجعل قسوة مرافقه تلين، أو لعله يفهم ما يحدث له (غرفة لهب.. حجرة ضيقة معتمة، ذات لون قاتم صدئ. فيها سلاسل، وبلطات، وسياط، وقاعدة خشبية ثقيلة ملطخة بألوان حمراء وسوداء. على أحد الجدران ثمة رأس معلق. وعلى حائط آخر علق قناع مخيف.. يجول جابر ببصره فى أرجاء الغرفة، فترتعش ملامحه رعبا، ويبدأ بالتعرق. «لهب» صامت، جامد وجهه معدن بارد. ويبدو شديد اللامبالاة..)

جـــــــابر: (يتكلم بلا ضابط.. الخوف والذهول يموجان فى عينيه، ويختلجان فى صوته) أعرف. أعرف.. صحيح أن بلادكم بعيدة. ولكن سمعت من بعض الرحالة والمسافرين كثيرا عن عاداتكم. لا تتركون مسافرا يغادر بلادكم الجميلة، قبل أن تكرموه، وتعرضوا له ما لديكم من تحف، وأشياء نادرة. والله

أعتقد أنى سمعت أيضا عن هذه الغرفة. لا شك أن لها قصة هائلة، يشيب لها الشعر.. (لهب لا يكترث به .. فبعد أن يغلق باب الغرفة بالمزلاج ينصرف إلى تحضير بعض الأدوات) تروى فى بغداد قصص مشوقة وجميلة عن بلاد العجم! يتحدث الناس أيضا بلعاب يسيل عن لذيذ مآكلكم، وعاداتكم فى الكرم، وفى إجبار الزائر على تناول كل ما يقدم له، حتى ولو صارت معدته كبطن الحامل والله كنت أتمنى لو أبقى هنا وقتا طويلا. أتفرج على بلادكم، وأتعرف على عاداتكم. لا بد أنها عادات لا مثيل لها (لهب يسن بهدوء بلطة كبيرة) ولكن تنتظرنى فى بغداد أشياء لا تقبل التأجيل (يحاول أن يضحك بألفة. فتأتى ضحكته صفراء) إن إمرأة يدوخ المرء بمجرد النظر إليها، تتزين الآن فى بغداد انتظاراً لعودتى. وأقول لك.. منذ اللحظة التى سلمت فيها الرسالة، لم أعد مملوكا كسائر المماليك. لقد أجزل الوزير مكافآتى. يهئ لى مركزا مرموقا، ويزوجنى، ويعطينى ثروة. (يربت على كتفه بتودد، ويبتسم) مكافأة مغرية لا يحلم بها رجل! (يهمس وكأنه يتقرب منه) أنا الذى دبرت الحيلة للخروج بالرسالة من المدينة، رغم شدة الحراسة على أبوابها. كم كان سروره عظيما! لو ترى عناقه عندما أردت الرحيل. لقد عانقنى كما أعانقك الآن. (ويحاول أن يعانق لهب متظاهرا بالمرح، ولكن الآخر يدفعه بقسوة فيرميه جانبا) يا الله.. ما أقوى ذراعك ولكن لا تبدو مرحا . (ينهض لهب، ويهيئ القاعدة الخشبية، كما يحضر السلاسل. يتابعه

جابر جاحظ العينين) أعرف.. أعرف.. كل إنسان وله طبعه.
ولكن هل فهمت الآن سر عجلتى. إنى لا أستطيع حتى أن أبيت
ليلتى هنا. إنها الآن تتزين وتنتظر. تعرف المرأة تضجر بسرعة
من الانتظار. (بعد أن ينتهى لهب من إعداد كل شئ. يمسك
جابر من ذراعه. وبقسوة يربط يديه بالسلاسل ويوثقهما خلف
ظهره.. يمتقع جابر. يتشتت بصره، ويتلعثم لسانه بالكلمات)
ولكن.. ماذا تفعل؟ بالله عليك ما هذا. لا شك أن مولاى منكتم
يريد أن يمازحنى. (لهب يطرح جابر أرضا.. يجبره على
الركوع، ويوثق رجليه أيضا. جابر يصرخ كما لو أنه يحشرج)
يا الله.. ماذا تفعل؟ أنا الآن رجل رفيع المقام، ولى زوجة
وثروة. بلغت الرسالة على أحسن وجه، وسأعود لأنال المكافأة.
مكافأتى. الرحمة.. الرحمة. (يختفى الصوت، وإن كنا لا نزال
نرى جحوظ عينى جابر.. وحركات فمه وهو يصرخ،
ويستغيث.. يحاول الإفلات.. ولكن الأوثقة محكمة.. يستمر
المشهد ويتم إيمائيا على الصوت الحكواتى..)

الحكواتى: ولم يعرف جابر أن هذا الرجل الذى ينادونه لهب هو بالذات
سياف ملك بلاد العجم. والسيافون يتصفون دائما بالدقة. لا
يهملون شيئا، ولا يحبون الكلام. وما إن أصبحت كل الأدوات
جاهزة، حتى أمسك لهب بيده المعدنية رأس المملوك جابر.
وضعه على القاعدة الملطخة بالدم اليابس. وبضربة من بلطته
المسنونة فصل رأسه عن جسده. (يتم ذلك إيمائيا، وأمام
المتفرجين. ينتشر اللغط بين الزبائن.. ثم ترتفع الاحتجاجات).

زبـــــون ٢: ما هذا؟

زبـــــون ٣: يقطعون رأسه بعد كل ما فعل!

زبـــــون ٢: لا يجوز.

زبـــــون ١: ما هذا الجزاء!

زبـــــون ٤: قلت لكم، يمكن أن تنتظره أيضا أسفل المراتب.

زبـــــون ٢: إننا لا نقبل.

زبـــــون ١: نهاية غير عادلة.

زبـــــون ٣: ينبغي أن ينال ما تستحقه فطنته.

الحـكـواتـي: (يعلو صـوته، ويحـاول السـيطرة على الضـوضـاء) وبعـد أن تدحرج رأس المملوك جابر، حمله السياف ليهب والدم يقطر منه. وتأمله طويلا ثم انفـجـر يقـهـقـه. (السـيـاف يتـقـدم من الزبائن، حاملا الرأس المقطوع.. ينظر إليهم ويقهقه).

زبـــــون ٢: أعوذ بالله من هذه الخلقة.

زبـــــون ١: هيئة عزرائيل.

زبـــــون ٣: قطع الله يدك.

السـيـــاف: (يتوقف عن القهقهة. يتفرس فيهم بعينيه الجريئتين، فيفرض عليـهم الصـمت والرهبـة، يضع الرأس بين راحـتـيـه ويقـربه منهم). كـان مـوته تحت فـروة رأسـه، ولم يدر قطع البـرارى يحمل قدره على رأسه، ولم يدر. كان يحلم بالعودة رجلا عالى الرتبـة، تنتظره زوجـة وثروة. بالعـودة رجـلا عـالي الرتبـة، تنتظره زوجـة وثروة. لكن بين الموت وهذه العودة، المسـافـة سؤال.

الحكواتي: ولم يسأل السؤال. (تنفجر قهقهة السياف كقهقهة عفريت.. ثم يرمي الرأس للحكواتي، فيلتقطه ويضعه بين يديه.. بينما يخرج السياف حاملا معه الديكور)

زبون ١: أعوذ بالله. هات شاي يا أبو محمد.

زبون ٣: وأنا أعطني فنجانا من القهوة.

الحكواتي:

(ينظر إلى الرأس ويقرأ ما هو مخطوط عليه) يقول وزير بغداد في رسالته: من الوزير محمد العبدلي إلى بين أيادي الملك ملككم.. نعلمكم أن الوقت حان، وفتح بغداد صار بالإمكان. فجهزوا جيوشكم حال وصول الرسالة إليكم وليكن هجومكم سراء وتحت ستر من الكتمان حتى تتم المفاجأة بفتح بغداد. وإن وجدتم في الطريق عساكر تمشي إلينا، فاقضوا عليها لأنها إمدادت للخليفة. ونحن هنا نتكفل بالعون وفتح الأبواب ثم يضيف الوزير حاشية صغيرة.. (وكي يظل الأمر سرا بيننا اقتل حامل الرسالة من غير إطالة). (لحظة ويكرر الحكواتي) وكي يظل الأمر سرا بيننا اقتل حامل الرسالة من غير إطالة.

زبون ٣: الغدار اللئيم.

زبون ١: هو الوزير إذن..

زبون ٢: لعنة الله عليه. يغدر ولا يحفظ عهدا

زبون ٣: بالله تكدر مزاجي.

الحكواتي: وكانت جيوش العجم تزحف كعاصفة هوجاء نحو بغداد. وفي طريقها خربت كل ما هو قائم. كان الوزير يوالي الاتصال

بقواده، ويرتب معهم خططه. وفجر يوم استفاق الناس فى بغداد على الهول.. جيوش تهاجم المدينة، وطبول الحرب تدوى، وهم لا يعرفون ما يجرى. يهرولون مذعورين، ويطلبون العون من العلى القدير. وانفتحت بعض الأبواب. واقتحمت الجيوش الأسواق. وأهل بغداد لايعرفون ما يجرى.. وعم الايثار، وطلع الغبار، وقصرت الأعمار، وسالت الدماء كالأنهار وحسب الناس أنها القيامة. الجثث تتكدس، والأعراض تهتك، والنار تشغل، والبيوت تتهدم.. وارتفع الأنين من بغداد كأنه سحابة من الغبار أو الدخان.. (تتم رواية هذا المقطع، على صوت خبب الخيول، صليل السيوف، صيحات الرعب بين حين وآخر، يندفع بعض الذين نعرفهم ممن مثلوا عامة بغداد أو سواهم. الرجل الأول، الثانب، الثالث، الرابع، المرأة الأولى، الثانية، ياسر، أحد الحراس.. كلهم يدخلون وهم يصرخون، ويمثلون إيمائيا تلقى الطعنات.

الحكواتى: كان يوما مروعا لم تشهد بغداد مثله. عم الحزن، وانتشر الموت كالهواء. لقى الكثيرون حتفهم دون أن يعلموا ما يجرى حولهم. وأصبحت الشوارع تسدها الجثث، والخرائب، وبقايا الجرحى. ذلك اليوم.. هبط الليل على بغداد مبكرا ومثقلا بالويل والأهوال.. وانتشر الظلام عميقا، ثقيلا كأنه نهايةالزمان. (يعم الصمت فترة مديدة، ثم ينهض الرجل الرابع من بين القتلى، يقف قرب الحكواتى. بعد قليل تظهر زمرد فى الطرف الآخر، فيناولها الحكواتى رأس المملوك جابر.. تحتضنه، وتقبله.

وبحركات بطيئة كالطقوس، يتقدم الثلاثة من الزبائن، تتوسطهم زمرد التي تحمل الرأس بين يديها. ووراءهم أكوام الجثث..)

الجـــمــيع: (معا إلى الزبائن والجمهور) من ليل بغداد العميق نحدثكم. من ليل الويل والموت والجـثث نحـدثكم. تقـولون.. فـخـار يكسـر بعضـه.. ومن يتـزوج أمنا نناديه عـمنا.. لا أحـد يسـتطيع أن يمنعكم من أن تقولوا ذلك. لكل واحد رأى

وتقولون.. هذا رأينا. لا أحد يستطيع أن يمنعكم منم أن تقولوا.. هذا رأينا. لكن إذا التـفـتم يومـا، ووجـدتم أنفـسكم غـربـاء في بيوتكم.

الرجل الرابع: إذا عضكم الجوع ووجدتم أنفسكم بلا بيوت.

زمـــــــرد: إذا تدحرجت الرؤوس، واستقبلكم الموت على عتبة صبح كئيب.

المجـمـوعـة: إذا هبط عليكم ليل ثقيل وملئ بالويل. لا تنسوا أنكم قلتم يوما.. فخار يكسر بعضه.. ومن يتزوج أمنا نناديه عمنا من ليل بغداد العـمـيق نحـدثكم. من ليل الويل والموت والجـثث نحـدثكم. (.. ينهض الممثلون المكدسون على الأرض، ثم ينسحب الجميع بعد لحظات من الصـمـت. يأخـذ العم مـؤنس كـتـابه، ويتـأهب للخروج..)

الحـكـواتي: (وهو ينصرف) كانت تلك حكايتنا لهذه السهرة.. وغدا نلقاكم بخير مع حكاية أخرى.

زبـــــون ١: ما هذه الحكاية؟

زبـــــون ٣: إنها قاتمة كحكاية البارحة.

زبـــــون ٢: إذا كانت حكاياتك لن تتغير يا عم مؤنس، سنبقى في بيوتنا.

زبـــــون ٣: يأتي الواحد هنا ليفرج كربه، ويسرى عن نفسه، لا ليكتئب ويحزن..

زبـــــون ٢: إذا لم تبدأ سيرة الظاهر غدا فلن أسهر بعد الآن فى هذا المقهى.

زبـــــون ٣: كلنا مثلك..(للحكواتى وهو يخرج) ماذا قلت يا عم مؤنس.. هل تبدأها غدا؟

الحـكـواتـى: لا أدرى.. ربما.. الأمر يتعلق بكم.
(يخرج.. ويتبادل الزبائن النظر بحيرة وكآبة..)

زبـــــون ١: يتعلق بنا!

زبـــــون ٣: أما غريب هذا العم مؤنس!

زبـــــون ١: غدا.. لن نقبل حكاية غير حكاية الظاهر.

زبـــــون ٢: غدا يفرجها الله هل نمضى إلى النوم؟

الـزبـائـن: (بأصوات متفاوته) ـ أى والله حان الوقت.. إلى النوم
(ينسحب الزبائن واحدا بعد الآخر، وهم يحيون أبو محمد. لايبقى سواه يرتب الطاولات قليلا.. ثم يقوم بحركة إغلاق المقهى..) (وهو يغلق المقهى، للجمهور) أنتم أيضا.. تصبحون على خير وإلى الغد.
(ستار) ١٩٧٠

رقم الإيــداع : ١١٩٦٣ / ٩٩
الترقيم الدولى : 8 - 6420 - 01 - 977



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل ـ للشاب ـ للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩
١٢٥ قرشاً
مهرجان القراءة للجميع
للطفل ـ للشاب ـ للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة